الباب الثالث

الحقوق والواجبات الاجتماعية في الإسلام

ان الإسلام أحاط المجتمع بتعاليم جلية من حقوق يكفلها والتزامات يُلزم بها، وهو بذلك يحمي المجتمع من العواصف التي قد تعتريه وتجعله على مشارف الهاوية .

فنجد أحكام الشريعة الإسلامية السمحة للأسرة، من وضع حقوق والتزامات لأفرادها لكل من الزوج والزوجة والأبناء، وكذلك الأقارب وصلة الأرحام، فكيف يكون المجتمع في ظل أسرة إسلامية واسعة النطاق ؟، الزوج يوفى بالتزاماته تجاه زوجته وأولاده، والزوجة توفى بالتزاماتها تجاه زوجها وأولادها، وكذلك الاثنان يوفيان بالتزاماتهم المشتركة تجاه بعضهما البعض وتجاه أبنائهم، وتتوسع الدائرة لنجد الأولاد يبرون بأمهاتهم وآبائهم، وتتوسع الدائرة أكثر فكل فرد فى الأسرة نجده يبر بأقاربه وصلة رحمه، وتتوسع الدائرة أكثر وأكثر، لنرى التوصية بحقوق الجار، وتتسع الدائرة إلى أن تكبر بين المسلمين، فنجد الإسلام يوصينا بأن المسلمين أخوة، المسلم أخو المسلم، يشد بعضه بعضا، ولا يسبه، ولا يلعنه، والمسلم من يسلم الناس من لسانه...الخ، وكل ذلك تعاليم إسلامية يكون المجتمع المسلم فى ظلها، مجتمع متعاون على الإحسان والبر والخير .

وسنفصل ذلك كله فى الفصول التالية .

الفصل الأول

حقوق الأسرة

تمهيد :

لن يقوم المجتمع دون أسرة قوية البنيان متينة الروابط بين أفرادها، يؤدون حقوق الله وما أمرهم به، لذلك فكان لزاماً علينا أن تتصدر حقوق الأسرة الصدارة الأولى فى الحقوق والواجبات الاجتماعية .

لقد خلق الله تعالي الإنسان من ذكر وأنثي ليتحقق بذلك التناسل وعمارة الكون قال الله تعالي :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَة وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به والأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[207]، وقال سبحانه :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [208].

والهدف من خلق الله تعالي للإنسان، هو عبادته وحده لا شريك له قال الحق تبارك وتعالي :﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ [209] .

وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يقوم المجتمع الإسلامي علي الأسرة، فالأسرة هي الخلية الأولي في المجتمع الإسلامي، وهي الأساس الذي يقوم عليه، وصلاحه وقوته امتداد لصلاحها وقوتها، وفساده أو ضعفه انعكاس لفسادها أو ضعفها . لذلك فقد أحاطها الشارع بكافة الوسائل والأسباب التي تضمن حسن تكوينها واستقرارها، واستمرار أدائها لوظيفتها ورسالتها علي الوجه الأكمل .

والأسرة في الإسلام أساسها عقد الزواج الذي يقوم علي حسن اختيار كل من الزوجين للآخر، والتراضي الكامل بين الطرفين، قال الله تعالي :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

---

207 . سورة النساء الآية رقم ١

208 . سورة الحجرات الآية رقم ١٣

209 . سورة الذاريات آية رقم ٥٦، ٥٧، ٥٨

أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢١٠] .

فمرحلة الاختيار تعتبر أهم المراحل التي يمر بها الزواج، وبقدر ما يعطي لهذه المرحلة من أهمية وعناية، يكون نجاح الزواج أو فشله .

فإذا تم الاختيار علي أساس الدين، والخلق الطيب، والقيم النبيلة، والمعاني الفاضلة، كان الاختيار موفقا، وكتب لهذا الزواج الذي يتم علي أساسه التوفيق والنجاح .

وإذا كان الاختيار قد تم دون النظر إلي دين أو خلق، وإنما كان المنظور إليه أمور أخري، كالجمال أو المال أو الحسب أو النسب، دون نظر إلي الدين أو الخلق، وتم الزواج بناء علي ذلك لم يكن الاختيار موفقا ولم يكتب لهذا الزواج الذي يتم علي أساسه التوفيق والنجاح، وكان مصيره الفشل والانحلال .

حيث بينت الشريعة الإسلامية المعاني والقيم التي يجب علي الرجل أن يراعيها عند اختيار الزوجة، ويأتي الدين والصلاح وحسن الخلق في مقدمة هذه المعاني، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : "تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها[٢١١]، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك "[٢١٢] .

ومعني هذا الحديث : أن الأمور التي يراعيها الرجال عادة عند اختيار الزوجة وتكون محل اعتبارهم والمرجحة عندهم لامرأة علي أخري هي : المال والحسب والجمال، والدين فهم يؤخرون الدين علي غيره من المال والحسب والجمال، لكن الرسول صلي الله عليه وسلم يأمرنا أن نجعل الدين في الاعتبار الأول عند اختيار الزوجة ونقدمه علي غيره من بقية الأمور التي تراعي عند الاختيار، حيث يقول الرسول صلي الله عليه وسلم " فاظفر بذات الدين تربت يداك " [٢١٣]. وهذا دليل علي أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمع نظره ومحل اعتباره في كل شيء، لا سيما في الزوجة، حيث تطول صحبتها ومرافقتها، وهي الأمينة علي ولده وماله وعلي نفسها [٢١٤] .

---

210 . سورة الروم الآية رقم ٢١

211 . والحسب هو الشرف، والحسب في الأصل الشرف بالآباء وبالأقارب، مأخوذ من الحساب، لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آبائهم وقومهم وحسبوها، فيحكم لمن زاد عدده على غيره .

212 . رواه الجماعة إلا الترمذي، وفي رواية لمسلم والترمذي، عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : " إن المرأة تنكح علي دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك " .

213 . وتربت يداك أي التصقت بالتراب من الفقر .

214 . نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص ١٢٦، وسبل الإسلام ج٣ ص١١١، ١١٢ .

وكما طالبت الشريعة الإسلامية الرجال أن يحسنوا اختيار زوجاتهم، وأن يكون اختيارهم علي أساس الدين والصلاح والخلق الطيب، فقد طالبت الشريعة المرأة ووليها أيضا أن يحسنوا الاختيار للزوج الصالح، وأن يكون ذا دين وخلق وصلاح، لقول الحق تبارك وتعالي : ﴿ وأَنكِحُوا الأَيَامَى [215] منكُمْ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وإِمَائِكُمْ إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [216] .

ويقول الرسول صلي الله عليه وسلم حاثا الأولياء علي تزويج من هن في ولايتهم لأهل الدين والخلق ومحذرا من رفضهم وعدم تزويجهم، حيث يقول الرسول صلي الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه _ أي زوجوه _ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير " . [217] وإنما حثت الشريعة الأولياء علي أن يختاروا لمن هن في ولايتهم أزواجا من أهل الدين والخلق والصلاح، لأن دينهم وخلقهم وصلاحهم يكون حافز لهم علي معاشرة زوجاتهم بالمعروف، وإحسان معاملتهن، والقيام بما عليهم من حقوق وواجبات نحوهن خشية الله تعالي وطاعة له وعملا علي مرضاته .

أما إذا اختاروا لهن أزواجا ممن لا دين لهم ولا خلق _ فنجد الآن تنخدع الفتاة بمظاهر تسير بها للزواج من شخص لا يستحقها ولا يصونها ويصون حقوقها فنجدها تنخدع مرة بوسامته وبحديثه، فهذه الوسامة وسامة كاذبة لأنها دون دين وخلق وهذا الحديث حديث منافقين فلا يسدل علي عينها الستار عن حقيقة الشخص الذي أمامها وتفكر بطريقة سليمة كما أمرها الله ورسوله صلي الله عليه وسلم فإنهم سيسيئون معاملتهن، ولن يكونوا أمناء عليهم، فلا يحفظن لهن حقا، أو يؤدون لهن واجبا، وحولوا حياتهم معهم إلي جحيم لا يطاق [218] حتى ولو كان هؤلاء الأزواج من أصحاب الأموال ومن أهل الجاه والسلطان، لأن المال مهما كان كثيرا والجاه وان كان عظيما، فلن يعوضا الزوجة عن سوء خلق زوجها، وعدم إحسان معاملتها،

---

[215] . الأيامى : جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما، يقال : رجل أيم وامرأة أيم . تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٨٦ .

[216] . سورة النور آية رقم ٣٢

[217] . رواه الترمذي بسنده عن أبي حاتم المزني وفي رواية أخري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : " إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض " .

[218] . ولعل هذا هو ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما حذر من عدم تزويج ذي الدين والخلق وإيثار غيره عليه ممن لا خلق له ولا دين، وأنه ستكون حينئذ فتنة فى الأرض وفساد كبير، حيث يقول صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير " .

والتقصير في حقوقها، بل ربما استعانوا بأموالهم وجاههم علي مزيد من إساءة معاملة الزوجة والتنكيل بها وحينئذ تبحث الزوجة وأولياؤها عن مخرج لهذه العلاقة، فلا يجدون إلا بعد جهد جهيد وبعد أن يضيعوا أوقاتهم وينفقوا أموالهم من كثرة التردد علي دور الشرطة وساحات القضاء .

وما كان أغناهم عن كل ذلك لو أحسنوا الاختيار للزوج التقي الصالح، كما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم .

قال رجل للحسن بن علي رضي الله عنهما : إن لي بنية وأنها تخطب، فمن أزوجها ؟ فقال له الحسن : زوجها ممن يتقي الله، فانه إن أحبها أكرمها، وان كرهها لم يظلمها .

كذلك فان الشأن في الصالحة أن تختار رجلا صالحا، كما أن الشأن في الصالح أن يختار امرأة صالحة، ليكون ذلك أدعي إلي التوافق بينهما وتحقيق معني السكن والمودة والرحمة، وما أجمل تلك المقابلة التي جاءت في القرآن الكريم : ﴿ والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾[٢١٩].

حقوق الزوج على الزوجة

قبل البدء فى الحديث عن حقوق الزوج على الزوجة، لابد أولا من تحديد عدة نقاط كثر الحديث فيها :

أولا : إن المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجارب الأمم ولا من حكم البداهة والمشاهدة . بل قام الدليل على نقيضه فى جميع هذه الاعتبارات . ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التي تضطر من يتجاهلها إلي الاعتراف بها بعد حين، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثا .. [٢٢٠]

أما عن مسألة القوامة فإذا اعتبرناها من وجهة إدارية، واعتبرنا أن الأسرة هيئة لا غنى لها عن قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم من الزوجين . أتكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟

ويجب الإشارة إلى أن أي عمل كي ينجح لابد وأن يكون له قائد .

إذن عندما خلق الله الخلق، لابد وأنه القدير العليم الذي قدر بأن تكون الأسرة هي قوام المجتمع، فخلق قائد لهذه الأسرة بمقومات تجعله مؤهلا لهذا الدور .

وليس معنى ذلك، أنه طالما للرجل القوامة، أن يكون له الاستبداد بالرأي أو التسلط، ولن

---

219 . سورة النور آية رقم ٢٦ .

220 . عباس محمود العقاد / حقائق الإسلام وأباطيل خصومه .

أطيل توضيح ذلك كثيرا، ولكني سأضرب مثلا – ولله المثل الأعلى – برسول الله صلوات ربي وسلامه عليه فى تعامله الشريف مع زوجاته فلم يكن قط متسلط – حاشا لله – ولم أرى تعامل مجحف بحقوق المرأة ومكانتها أو الانتقاص من شأنها .

ثانيا : هناك عدة ممارسات خاطئة من جانب الرجال فى مجتمعاتنا العربية وهذه الممارسات بعيدة كل البعد عن الدين وما أمر به من التعامل الكريم للمرأة، ولا يجب خلطها بتعاليم الدين، ولعل ذلك ما جعل خروج حركات نسائية تنادي بتحرير المرأة من (ثقافة ذكورية) تعاني منها وذلك نتيجة أن المجتمع والرجل سحب من المرأة حقوقاً أعطاها الإسلام إياها من قبل، ولكن ضعف أحوال المرأة، وتسلط بعض ممارسات الرجل، تم انتقاص حقوقها، بل وانتهاك معظمها .

فخرجت تنادي بحقوقها، ولكن ما ألوم عليه أن هذه الحركات نست الكثير من واجبات المرأة التي طالما أرادت التخلي عنها، فأصبحت تنادي بحقوق طوال الوقت ونست مهمتها، وواجباتها.

ولم يقف الأمر عند ذلك، بل أن بعض الحركات النسائية المتشددة فى المطالبة، تخطت كل حقوق الرجل .

ليس معنى حقوق المرأة أننا ننتهك حقوق الزوج، وليس معنى حديثنا عن حقوق الزوج من طاعة وقوامة أنه تسلط وسلطة على الزوجة، ولكن مفترض أن نعود للأصل والفطرة التي خُلقنا عليها، والتي خُلقنا من أجلها، وإذا ابتعد طرف فليعود إلى صوابه .

حقوق الزوج :

للزوج علي زوجته حق الطاعة فيما عدا الأمور التي تكون فيها معصية الله تعالي، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فمتى أدى الزوج حقوقها الواجبة عليه شرعاً بمقتضي عقد الزواج من معجل الصداق المتفق عليه، وأعد المسكن المناسب وكان أميناً عليها وجب عليها طاعة زوجها حينئذ، كما يجب عليها حفظ ماله وحفظ نفسها وأداء الأمانات إليه . والأصل في ذلك قول الحق تبارك وتعالي : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾[221] والمعني أن الصالحات مطيعات لله تعالى، قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله تعالي وحقوق أزواجهن وحافظات لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن وحفظ أموالهن [222] ومن

---

221 . سورة النساء الآية رقم ٣٤

222 . (الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ج٣ ص١٧٤٠ وفيه : " ومعني قوله تعالي {بما حفظ الله} أي يحفظ الله لهن، ويصح أن تكون بمعني الذي أي حافظات لمغيب أزواجهن بحفظ الله ومعونته وتسديده وقيل بما استحفظهن الله إياه من أداء الأمانات إلي أزواجهن)

السنة ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : " خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك " . وقد بين لنا صلي الله عليه وسلم أن المرأة التي تحظي برضا زوجها في غير معصية الله تعالي يكون جزاؤها الجنة ، فقد روي عن أم سلمة أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : " أيما امرأة باتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة " [٢٢٣]

ولا يعني ثبوت حق القوامة للزوج على الزوجة أن يتدخل في أمورها المالية لأن لها أهليتها المالية مادامت بالغة عاقلة رشيدة فتتصرف في مالها كيفما تشاء دون تدخل من أحد، أما إذا كانت غير كاملة الأهلية فيما يتعلق بالمال فإن الولاية عليها تثبت لوليها المالي كأبيها أو الوصي المختار أو المعين من قبل القاضي وليس زوجها .

هل تلزم المرأة قضاء بخدمة بيت زوجها والقيام بشئون المنزل ؟

يرى جمهور الفقهاء أنه ليس للزوج أن يطالب زوجته قضاء بخدمة بيته والقيام بشئون المترل، لأن عقد الزواج لا يقصد به خدمة المترل بل يقصد به حل استمتاع الرجل بالمرأة واعفاف النفس وإنجاب الذرية، فليس من حق أحد إجبارها على خدمة زوجها وأولادها وبيتها لأن عقد النكاح إنما يقتضي الاستمتاع لا الاستخدام وبذل المنافع وليس هناك دليل شرعي يلزمها بخدمة زوجها وأولادها وبيتها .

– بينما يرى بعض الفقهاء وجوب خدمتها في مترل زوجها وقال بهذا الرأي طائفة من السلف وأبو ثور من الشافعية وابن قيم من الحنابلة .

واحتج الفريق الثاني بأن هذا هو المعروف المشار إليه في قوله تعالى " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة " أما خدمة الزوج في بيته فهذا منكر وليس من المعروف في شيء.

واحتجوا أيضا بأن السيدة فاطمة رضي الله عنها لما اشتكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تلقى يداها من الرحى من كثرة العمل وهي تخدم في بيت زوجها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي : لا خدمة عليها .

كما ورد عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنها قالت : " كنت أخدم في بيت الزبير بن العوام (زوجها) خدمة البيت كله وكان له فرس كنت أسوسه واحـــتش له وأقوم عليه وصح عنها أنها كانت تعلف فرسه وتسقي الماء وتعجن وتنقل النوى على رأسها من أرض له "

---

223 . (رواه ابن ماجة) .

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء والعلف على رأسها والزبير معه لم يقل لها لا خدمة عليها وان هذا ظلم لها بل أقره على استخدامها .

كما أقر سائر الصحابة على استخدام أزواجهم مع علمه أن منهن من يكره العمل ومن ترضاه.

ورد الجمهور على هذه الروايات المتعلقة بالخدمة في بيت الزوج بأن ما ورد بها يعد من باب التطوع ومكارم الأخلاق وليس من الوجوب في شيء .

ونرجح رأي جمهور الفقهاء الذي يقضي بعدم وجوب الخدمة المترلية على الزوجة لأن عقد الزواج ليس من عقود العمل وإنما المقصود منه حل المعاشرة الزوجية وتحصين النفس وإنجاب الذرية، وإعداد البيت من واجبات الزوج لقوله تعالى ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وجْدِكُمْ ﴾ [٢٢٤] .

كما يبدو لي أن تعاون المرأة مع زوجها في الشئون المترلية إذا كان زوجها غير قادر على استئجار خادم لذلك أمر مستحب شرعا لأنه تعاون على البر والتقوى لكنها لا تجبر عليه، وتعد خدمتها في هذه الحالة تطوعا منها ومن مكارم الأخلاق .

سلطة تأديب الزوجة :

ومقتضى القوامة أن تكون للزوج سلطة تأديب زوجته، والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿واللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً ﴾ ويقول الإمام القرطبي فى هذا المعنى (أي تخافون عصيانهن وتعاليهن عما أوجب الله عليهن من طاعة الأزواج) . فمن حق الزوج حينئذ أن يتبع الطرق الآتية في تأديب المرأة بسبب نشوزها :

١ - الوعظ :

أن يذكرها بما أوجب الله عليها من حسن الصحبة وجميل العشرة للزوج وأن يكون الوعظ بالرفق واللين، وفي هذا يقول الشيخ أبو زهرة : " والوعظ طبقات أخفها التنبيه الديني أو الخلقي من غير تنقص وأعلاها اللوم والتنبيه إلى العيوب ونتائجها، ولكل حال نوع من القول وطريق في الخطاب، والعاقل من عرف لكل أمر علاجه، ولكل داء دواءه "

---

224 . (الطلاق ٦) .

٢ - الهجر في المضجع :

وإذا لم يجد الوعظ هجرها في المضجع، والهجر أن يفارقها في المضجع كما روى ذلك عن ابن عباس وغيره بشرط ألا يزيد الهجر في المضجع عن أربعة أشهر، وألا يزيد الهجر في الكلام عن ثلاثة أيام لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا هجرة فوق ثلاث من هاجر فوق ثلاث فمات دخل النار " [٢٢٥] .

ويلاحظ أن الهجر في المضجع لا يكون إلا في البيت فلا يتحول عنها إلى دار أخرى، ولا يبعدها زوجها إلى دار أخرى لقوله صلى الله عليه وسلم من حديث رواه معاوية القشيري : " ولا تهجر إلا في البيت " .

ويشترط في الهجر أن يكون جميلا من غير جفوة موحشة وهو المنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [٢٢٦] .

٣ - الضرب :

فإذا لم يحقق الوعظ ولا الهجر الغاية منهما وهي عودها إلى طاعة زوجها واستقامتها كان له أن يضربها ضرب أدب غير مبرح أي غير شدد فلا يؤذي ولا يشين، فقد يكون في الضرب إصلاح لها بدلا من إقدامه على الطلاق وهدم الأسرة .

وفي هذا الشأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " استوصوا النساء خيرا فإنما هن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن لكم من نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن " [٢٢٧] .

قيود التأديب بالضرب :

ومحل الضرب إذا رأى منها ما يكره ولم تنفع وسيلتا والوعظ والهجر كما بينا .

والضرب يشترط فيه أن يكون غير مبرح أي غير شديد كما ورد بالسنة أي لا يؤذيها ولا

---

225 . (أخرجه أبو داود) .

226 . (المزمل ١٠) .

227 . (رواه ابن ماجة) .

يشينها كالضرب بالنعل فهو شائن أي مهين لها ولقد روى عن عطاء قلت لابن عباس ما الضرب غير المبرح ؟ قال بسواك ونحوه ولا يجوز ضرب الوجه لما فيه من الإهانة كما لا يجوز التقبيح فلا يقول لها " قبحها الله " لما روى عن معاوية القشيري أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله رجل ما حق المرأة على زوجها ؟ قال : تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت "

ولقد ورد النهي عن ضرب النساء مطلقا بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تضربوا إماء الله فجاء عمر فقال : ذُئِر النساء على أزواجهن فأذن لهم فضربوهن، فأطاف بالرسول النساء صلى الله عليه وسلم نساء كثيرة فقال : لقد أطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون امرأة كلهن يشكين أزواجهن ولا تجدون أولئك خياركم " [228] .

ويقول الإمام الشوكاني " فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل وإذا وصل إلى الغرض بالإيهام أي الوعيد فلا يعدل إلى الضرب لما في ذلك من حصول النفرة المضادة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجية "

ولذلك وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يضرب زوجة له قط .

فقد روى عن عائشة قالت " وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة له ولا خادما قط ولا ضرب بيده شيئا قط إلا في سبيل الله أو تنتهك محارم الله فينتقم لله " .

فإذا تركت المرأة النشوز أي عادت إلى صوابها وأطاعت زوجها فلا يجوز التعدي عليها بالقول أو الفعل، لأن في ذلك ظلما لها، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً ﴾ وهذا إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب أي إن كنتم تقدرون عليهن فتذكروا قدرة الله، فيده بالقدرة فوق كل يد فلا يستعلى أحد على امرأته فالله بالمرصاد " .

تجاوز الزوج حدود سلطة التأديب :

وإذا تجاوز الزوج حدود سلطته في التأديب أو أساء استخدامها كان من حق المرأة أن ترفع الأمر إلى القاضي ليأمره بحسن العشرة ويعزره بما يراه زاجرا له وباعثا على الإمساك بالمعروف، فإن لم يفلح هذا التعزير في الإصلاح بينهما فإن القاضي يبعث إليهما حكما من أهله وحكما من أهلها للإصلاح ويقتصر دور الحكمين على ذلك لقوله تعالى :﴿ وإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

---

228 . (رواه أحمد)، ومعنى (ذئر النساء) أي عصين .

فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إن يُرِيدَا إصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾[229] .

ويرى الإمام مالك وغيره أن المرأة لها الحق في طلب الطلاق للضرر من المحكمة إذا امتنع زوجها عنه، والقاضي يطلقها للضرر إذا تبين له ذلك وهو ما يسير عليه العمل في مصر .

الحكمة من تعدد وسائل التأديب :

والحكمة من تعدد وسائل تأديب المرأة وتدرجها هي أن " النساء تختلف طبائعهن ففيهن من تردهن الكلمة عن غيها ومنهن من لا يؤثر فيها الكلام ولا يردها إلا الهجر والحرمان، ومنهن من لا يفيد معها الكلام ولا هجر لشراسة في خلقها وعناد ولا يرده إلا الضرب إذا عرفنا ذلك أدركنا سر تنوع وسائل التهذيب في كتاب الله تعالى الذي لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء والذي خلق المرأة وهو الخبير بأسرارها العليم بما يهذبها إذا ما التوى بها الأمر عن الجادة المستقيمة ".

حق تعدد الزوجات :

سلك الإسلام مسلكاً وسطاً فى تشريع الزواج، فقد جاء إلى العالم فوجد نوعين من الشرائع، منها ما أباح تعدد الزوجات مطلقاً من غير حد أو قيد، ومنها ما منع التعدد وقصر الزواج على واحدة، فكان الإسلام وسطاً بين الشرائع، شأنه دائما فى جميع تشريعاته وأحكامه، فشرع الزواج وأذن فى تعدد الزوجات حتى أربع، مع الالتزام بشرط العدل وحسن المعاشرة .

وقد شرع الإسلام التعدد لحكم جليلة وأهداف نبيلة، منها ما يرجع إلى الرجل، ومنها ما يرجع إلى المرأة . وفيما يلي نعرض لأهمها :

أولا : لما كانت الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة لكل الشرائع، والصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، فهي تخاطب كل الناس وكل الأجيال، مهما اختلفت أزمنتهم وبيئاتهم التي عاشوا ونشئوا فيها، ومهما تنوعت طبائعهم وأخلاقهم، ولما كانت طبيعة الرجل ليست واحدة، وإنما تختلف باختلاف إقليمه الذي نشأ فيه، وتبعا لبيئته وظروف حياته، أن تشتمل الشريعة الخاتمة على الأنظمة والأحكام التي تلبي حاجات المخاطبين بها، حتى يكونوا ملتزمين بأحكامها منفذين لتكليفاتها .

---

[229] . (النساء ٣٥) .

ولما كانت هذه الشريعة تخاطب المعتدل فى شهواته، كما تخاطب الحاد المفرط فيها، كان من الواجب أن يكون فيها من السعه والمرونة ما يرضى المعتدل، وما يهذب المفرط من غير أن يضيق القيد فينخلع من الربقة . إن الاقتصار على زوجة واحدة هو بلا ريب الزواج الأمثل فى الجماعة، وهو البعيد عن نطاق الظلم ولكننا لو أغلقنا على ذوى الشهوات الحاد باب الزواج، لفتحوا لأنفسهم باب الفساد، فنهتك الستور، ويكون الأولاد الذين لا آباء لهم ولو خيرنا بين زواج معيب وبين الزنا لاخترنا الأول، إن كنا نسير على هدي العقل ونوره .

ثانياً : هناك حالات كثيرة تكون الزوجة فيها إما مريضة بمرض يمنعها من القيام بواجباتها نحو زوجها أو أنها زهدت فى القيام بجزء من هذه الواجبات فيكون الزوج اما ان يبقى على الزوجة والرضا بهذا الأمر وفى هذه الحالة غير مضمون أن يحتفظ الزوج بعفته ولا يندرج فى أي تيار منحرف مع امرأة لا تحل له، أو أنه يتزوج ويصون نفسه من الخطيئة مع الاحتفاظ بزوجته الأولى.

ثالثاً: قد تكون الزوجة عقيما لا تنجب، والزوج صالح للإنجاب وله رغبة ملحة فى أن يكون له ولد . وإزاء هذا الوضع، فالزوج أمام واحد من خيارات ثلاث – أيضا – : فهو إما أن يبقى على هذه الزوجة مع الإذن له بالزواج من أخرى لعله يرزق منها الولد الذي حرم الأولى، مع التزامه بالعدل بينهما وحسن معاشرتهما وعدم التقصير فى حقوقهما . وإما أن يطلق زوجته العقيم مع حبه لها وتعلقه بها، وقد لا يكون لها عائل غيره، ويتزوج بأخرى يلتمس منها أن يرزق بالولد . وإما أن يبقي على زوجته العقيم مع عدم الإذن له بالزواج من غيرها، مع رغبته الملحة فى الإنجاب وحبه للولد، والإسلام يحرم التبني .

لا شك أن الخيار الأول يفضل بقية الخيارات، لما فيه من تلبية لحاجات الزوجين معا، وتحقيق لمصالحهما، فإن من مصلحة هذا الرجل أن يتزوج بأخرى، ومن مصلحة هذه المرأة – أيضا – أن تبقى زوجة لهذا الرجل مع أخرى، بدلا من طلاقها فتعيش وحيدة بقية حياتها، مع أمل ضعيف فى العثور على زوج آخر تقضى معه ما تبقى من عمرها .

خامسا : وحكمة قصر التعدد على أربع زوجات كحد أقصى، هو أن للزوجة حقوقا على زوجها، عليه أن يراعيها ويؤديها لها، فإذا شاركتها زوجة أخرى وجب عليه أن يعدل بينهما . وفى قصر التعدد على أربع اقتراب من تحقيق العدل فيما لو تزوج أربعا، حيث يعود إلى كل واحدة منهن بعد ثلاث، وهذه الفترة وأن كان فيها مضارة للزوجة إلا أن الثلاثة مدة قليلة،

وقد " اغتفرت فى مواطن كثيرة، فيجوز الهجر – للمسلم والزوجة – ثلاثة أيام، والإحداد على غير الزوج ثلاثة أيام، والخيار ثلاثة أيام . ففي هذه الصور كلها الثلاث مستثناة على خلاف الأصول، فكذلك لما كانت الشحناء والمضارة على خلاف الأصل، استثنى ثلاث زوجات يضار بهن زوجة أخرى " .

حقوق الزوجة على الزوج

لقد أقر الميزان الإسلامي حقوقاً والتزامات تسير على كل من الزوج والزوجة وذلك لحماية وصيانة الأسرة من العواصف التي قد تعتريها من عوامل خارجية تؤثر على الجيل النشء وهم الأطفال ، فهذه الحقوق والالتزامات تحمى الزوجة من التعسف الذي قد يمارسه الرجل في حقه عليها . وكذلك تحمى الزوج من عصيان وتمرد الزوجة، والحقوق التي وضعها الله عز وجل في ميزانه الإسلامي للزوجة على النحو التالي :-

أولاً : حقوق الزوجة غير المالية:

للزوجة حقوق مالية كالمهر والنفقة وحقوقاً غير مالية كعدم الإضرار بها والمعاشرة بالمعروف ، والعدل إذا كان الرجل متزوجا بأكثر من زوجة .

١ - حق المعاشرة بالمعروف وعدم الإضرار بالزوجة :

إذا كان الشارع قد منح الزوج حق الطاعة وأعطى له القوامة عليها وجعل سلطة تأديبها في يده فإن هذه الأمور مقيدة بعدم ظلم المرأة وبحفظ حقوقها، فلا يتعدى على نفسها بالقول أو الفعل ولا مالها، ويجب عليه أن يكون عدلا معها رحيما بها أمينا عليها عملاً بقوله تعالى :﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[230] فإذا اضطر الزوج إلى تأديبها فينبغي عليه أن يتقيد بحدود التأديب التي بيناها.

فلا يتجاوز هذه الحدود و إلا كان ظالماً ، وهذا ما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً ﴾[231] فلا يجوز للزوج أن يستعلى على زوجته .

أوجب الشارع على الزوج معاشرة الزوجة بالمعروف ومعاملتها بحنو ولطف وقد جاء النص على ذلك في كتاب الله تعالى :﴿ وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا

---

230 . (سورة البقرة :٢٣١) .

231 . (سورة النساء :٣٤) .

شَيْئاً ويَجْعَلَ اللَّهُ فيهِ خَيْراً كَثيراً ﴾[232]، ويقول ابن كثير في معنى قوله تعالى ﴿ وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ : أي طيبوا أقوالكم لهن ، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله، وقوله تعالى :﴿ ولَهُنَّ مِثْلُ الَذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [233].

وفى السنه روى أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ((لا يفرك (أي لا يبغض) مؤمن مؤمنة أن كره منها خلقاً رضي منها آخر))[234] . ويقول الشوكاني في الحديث إرشاد إلى حسن العشرة وعدم بغض الزوجة فإذا كره خلقا من أخلاقها فهي لا تخلو من خلق يرضاه منها . كما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))[235]، يقول الإمام الشوكاني في معنى الحديث : وفى ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة فى الخير وافقهم بالإنصاف به هو من كان خير الناس لأهله فإن الأهل هم الأحقاء بالبشر وحُسن الخُلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس وإن كان على العكس من ذلك فهو فى الجانب الآخر من البشر، وكثير ما يقع الناس فى هذه الورطة فيرى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقا وأقلهم خيراً، وإذا لاقى غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وذهب غضبه وانبسطت أخلاقه وكثُر خيره ومن كان كذلك فهو محروم التوفيق زائغ عن سواء الطريق .

ومن معاشرة الرجل لزوجته بالمعروف أن يداعبها ويمزح معها فإن المداعبة والمزاح مما يطيب قلوب النساء ويسعدهن، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وكان من أخلاقه أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساؤه ، حتى أنه كان يسابق السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودد إليها بذلك، ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى مترلها ، وكان إذا صلى العشاء يمر مع أهله قليلا قبل أن تنام يؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم . وينبغي أن نقتدي به عليه الصلاة والسلام في ذلك وفى جميع أموره، لقول الحق عز وجل ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

---

232 . (سورة النساء :١٩) .

233 . (سورة البقرة :٢٢٨) .

234 . (رواه الإمام أحمد) .

235 . (رواه الترمذي) .

العدل بين الزوجات :

هذا الحق يعنى أن الرجل إذا كان متزوجا بأكثر من زوجة عند وجود المبرر لذلك فيجب أن يعدل بينهن ، لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ عقيب قوله تعالى ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ ففي الشق الثاني من الآية الكريمة تحذير من التعدد عند خوف عدم العدل ، وهذا يدل على أن العدل بين الزوجات عند تعددهن حق لهن وواجب على الزوج .

والعدل المطلوب هنا هو العدل في الأمور الظاهرة التي في قدرة الإنسان وطاقته ويتحقق ذلك بالمساواة بينهن في المبيت ، وفى النفقة بأنواعها الثلاثة وهى الطعام والكسوة والسكن.

ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من عاقبة عدم العدل بين الزوجات بقوله صلوات الله وسلامه عليه :((من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة واحد شقيه مائل))[٢٣٦]

وأما العدل في الأمور الباطنة ، كالحب والميل القلبي ، فغير مطلوب هنا لأن هذه الأمور التي لا اختيار فيها للإنسان ، لأنها تأتى رغما عنه وبدون اختيار منه .

ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" .

وكان صلى الله عليه وسلم يقصد بقوله " فلا تلمني فيما لا أملك" حبه للسيدة عائشة رضي الله عنها وميله القلبي إليها أكثر من غيرها من بقية زوجاته صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر لا يملكه ، وإنما مملوك لله عز وجل مالك القلوب ومقلبها.

ثانياً : حقوق الزوجة المالية :

١ - المهر :

المهر حق مالي أوجبه الشارع للمرأة على الرجل في عقد زاوج صحيح أو دخول بشبهة أو بعد عقد فاسد. وهذا التعريف يفيد أن المهر واجب وأنه يجب على الرجل لا على المرأة . قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾[٢٣٧]، والمقصود بـــ (صدقاتهن) هو المهور و (النحلة) هي العطية ، وهل الصداق

---

236 . (رواه الإمام أحمد في مسنده) .

237 . (سورة النساء: ٤).

عطية؟ لا. إنه حق وأجر بضع . ولكن الله يريد أن يوضح لنا أن إيتاء المهور للنساء نحلة ، أي وازع دين لا حكم للمعاني ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتي :

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل في المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أي أن كلاً منهما له متعة وشركة في ذلك، وفى رغبة الإنجاب ، وكان من المفترض ألا نأخذ شيئا لأنها ستستمتع وأيضاً قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل في المترل والرجل سيكدح خارج البيت، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء صدقاتهن نحلة .

وجاء في موسوعة فقه ابن عباس : كان ابن عباس يرى أن المهر في حقيقته هبة واجبة من الزوج للزوجة [٢٣٨] للاطمئنان على أنها ستلقى في بيته كل تكريم ولذلك يُكره أن يدخل قبل أن يعطيها شيئاً عظيماً كان ذلك الشيء أو يسيراً ، حتى إنه إذا لم يجد شيئاً أعطاها إحدى نعليه أو خاتمه أو رداءه .

وقال : " إذا نكح الرجل المرأة وسمي لها صداقاً، فأراد أن يدخل عليها فليلق إليها رداء أو خاتماً إن كان معه "، وتزوج ابن عباس امرأة ودخل عليها ولم يكن قدم شيئاً قبل ذلك فألقى عليها مطرفاً كان عليه .[٢٣٩]

وعن قيمة المهر، فبعيد عن الخوض في آراء الفقهاء وعلماء الإسلام عما إذا كان يتحدد قيمة المهر أم لا، أو قيمة المهر بذاتها، فأود أن أبرز هنا في قيمة المهر نقطة معينة وهي عدم المغالاة في قيمة المهور ففي رواية عن عمر بن الخطاب أنه أراد أن ينهي الناس عن المغالاة في المهور ويحدد لها مقدارا معين لا يتعداه أحد فقال في إحدى خطبه [٢٤٠]، ألا تغالوا في صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية . الأوقية من الذهب أربعون درهماً، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر يعطينا الله وتحرمنا أليس الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾[٢٤١] فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

ولقد كان لعمر رضي الله عنه اجتهادات كثيرة كانت تصدر عن رغبة في الإصلاح فكثيراً ما

---

238 . (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٦٤) .

239 . (رواه عبد الرزاق في المصنف، ١٨٣/٦) .

240 . (تفسير القرطبي ج ٥ ص٩٩) .

241 . (سورة النساء ٢٠) .

منع الناس من مباحات خشية ما يترتب على اندفاعهم فيها من ضرر يلحقهم . وفي هذه المسألة كان الباعث له هو تيسير الزواج عملاً بروح التشريع الذي دعا إليه رسول الله كما جاء في مسند الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " خير الصداق أيسره " فأراد رضي الله عنه أن يجعل للصداق حداً أعلى لا يتجاوزه الناس فقدره بأربعمائة درهم . وهو قربت من القدر الذي لم يتجاوزه الرسول في تزوجه وتزويج بناته ولكنه لما سمع الآية ووجدها صريحة في جواز الزيادة رجع عن إلزام الناس بما قال في الزواج يجمعون عنه فنتج عن ذلك أزمة الزواج التي صار الناس في حلها مع أن الحل في أيديهم، ولو وقف الناس عند الحدود المعقولة فتنازل الزوج عن مغالاته فيما يطلبه، وكف أهل الزوجة عن تحميل أنفسهم ما لا يطيقون اندفاعا وراء التقليد الأعمى بمحاكاة الآخرين، وعرف الكل أن الزواج لم يُشرع إلا لتكوين الأسرة في صورة موفقة، جمالها البساطة والمودة وعمادها التعاون والمحبة .

لو عرفوا ذلك وساروا عليه لانحلت المشكلة وما وجدت شاكياً ولا باكياً . ولكنه التقليد أعمى الناس عن الحقائق الواضحة وسار بهم في طرق ملتوية حتى عمت الشكوى وزاد البلاء .

٢ - النفقة كحق من حقوق الزوجة :

النفقة حق من حقوق الزوجة على الزوج فيجب أن يدفع لها ما يكفيها من الطعام والكسوة ويعد لها سكن مثلها .

وقد أجمع الفقهاء على وجوب نفقة الزوجة على زوجها واستدل الفقهاء لذلك بما يلي :-

١- قوله تعالى : ﴿ والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢٤٢] وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وجْدِكُمْ ولا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وإن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[٢٤٣] فهذه الآيات تدل على وجوب نفقة الزوجة على زوجها بل توجب النفقة كاملة للمعتدة .

٢- ما رواه الإمام أحمد من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في حجة الوداع في ذكر النساء: "ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف " وجه الدلالة منه وجوب النفقة والكسوة الزوجية.

---

242 . (سورة البقرة ٢٣٣) .

243 . (سورة الطلاق ٦) .

٣- ما رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف " [٢٤٤] ووجه الدلالة من الحديث أن نفقة الزوجة واجبة على زوجها وإذا امتنع الزوج عن الإنفاق عليها أو أعطاها ما لا يكفيها فإن لها أن تأخذ من ماله بدون علمه .

إن الشارع عنَّي بكافة علاقات الزوجية فأقام أحكامها على العدل والمساواة والرحمة والمودة والتكافل . ولم يدع الشارع أنثى إلا ولها منفق عليها . يضمن كفايتها حسب حاله ديانة وقضاء، سواء كانت بنت أو زوجة أو أم أو جدة .

الحقوق المشتركة بين الزوجين

إن الإسلام قد وضع حقوقاً على الزوجين، وهذه الحقوق منها ما هو مشترك بين الزوجين، ومنها ما هو حق للزوج على زوجته، ومنها ما هو حق للزوجة على زوجها .

وإن الحياة الزوجية بحقوقها وواجباتها والتزاماتها لتمثل بناءاً ضخماً جميلاً يعجب الناس منظره، وإن أي نقص في أي حق من الحقوق الزوجية سواء كان حقاً مشتركاً أو خاصاً يسبب شرخاً عظيماً في بناء الأسرة المسلمة .

وليت هذا النقص يعود أثره على الزوجين فقط، بل إن أي تقصير أو نقص في واحد من هذه الحقوق وخاصة الحقوق الظاهرة التي يراها الأبناء والبنات سيكون أثره على الأبناء والبنات جميعاً على حد سواء .

فإن الولد سواءً كان ابناً أو بنتاً، إذا كان يصبح ويمسي على شجار وخلاف بين أبويه، وترى البنت أمها لا تقوم بحق والدها حق القيام ويرى الابن أباه لا يقوم بحق أمه حق القيام . لا شك أن هذا سيورث عندهما تصوراً خاطئاً وسيئاً ويجعل الأب والأم في قفص الاتهام دائماً من قبل الابن أو البنت .

وإن الزوجين إذا التزما منهج الإسلام الكامل في الحقوق الزوجية عاشا في ظلال الزوجية الوارف سعداء آمنين لا تعكرهما أحزان المشاكل ؛ ولا تقلقهما حادثات الليالي .

---

244 . (صحيح البخاري بشرح العسقلاني، ج١١ ص ٤٣٥، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف) .

أولاً : حل المعاشرة بين الزوجين :

هذا أول الحقوق المشتركة بين الزوجين، وهو حل المعاشرة بينهما، وحل ما يقتضيه الطبع الإنساني مما هو مُحرم بينهما قبل الزواج، لقوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[٢٤٥]، فلكل من الزوجين أن يستمتع بالآخر في الحدود وعلى الصفة التي قررها الشارع، وعلى كل منهما أن يستجيب لرغبة الآخر، ما لم يوجد مانع شرعي من ذلك، قال تعالى ﴿ويَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾[٢٤٦]، ويجب على الزوج ديانة أن يعف زوجته، وألا ينصرف عنها بعمل أو سفر أو بعبادة تستغرق كل وقته، حتى لا يعرضها للفتنة، فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم النهار ويقوم الليل، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : " يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ " فقال : بلى يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا تفعل ذلك، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً " .

كما يجب على الزوجة أن تجيب زوجها إذا دعاها، فإن امتنعت عنه بدون عذر كانت آثمة، لما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح " [٢٤٧]

ثانياً :إحسان العشرة :

يجب على كل من الزوجين أن يحسن عشرة الآخر، ويتودد إليه، ويسعى إلى إرضائه بكل ما هو ممكن ومشروع، كما يحرص كل منهما على احترام رأي الآخر، ويُحسن مخاطبته، ويُقابل إساءته بالإحسان، ويبتعد عما يجلب الشقاق والنـــزاع، فيغض الطرف عن الهفوات، ويتغاضى عما يثير المشاحنات . إذا فعل كل منهما ذلك نحو الآخر، شعر كل منهما بالرضا وأحسن

---

245 . سورة المؤمنون آية رقم ٥، ٦ .

246 . سورة البقرة آية رقم ٢٢٢، ٢٢٣ .

247 . رواه البخاري .

بالمعنى الحقيقي للسعادة الزوجية، ووجد كل منهما عند الآخر ما يسره ويرتاح إليه، وتحقق بينهما السكن وسادت المودة والرحمة، كما أخبر بذلك المولى عز وجل في قوله تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢٤٨] .

ثالثاً : ثبوت نسب الأولاد :

من الحقوق المشتركة بين الزوجين أيضاً ثبوت نسب الأولاد إلى كل من الزوج والزوجة باعتبارهم من ثمار هذا الزواج . فهو حق للزوجة كما هو حق للزوج، قال تعالى :﴿ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وحَفَدَةً ﴾[٢٤٩]، ويثبت نسب الأولاد إلى أبيهم وأمهم إذا أتت الأم بأول مولود من هذا الزوج بعد الدخول الحقيقي بستة أشهر على الأقل، لأنها أقل مدة حمل باتفاق الفقهاء، أخذ من قوله تعالى :

﴿ ووَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ووَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾[٢٥٠] . وقوله تعالى :﴿ ووَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْناً عَلَى وهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾[٢٥١]، فالآية الأولى جعلت مدة الحمل والفصال – وهو الفطام بانتهاء الرضاع – ثلاثين شهراً، وجعلت الآية الثانية مدة الفصال فقط عامين، أي أربعة وعشرين شهراً، مما يدل على أن مدة الحمل فقط ستة أشهر . وأما إذا مات الزوج أو طُلقت الزوجة وهي حامل، فإن الولد الذي يأتي نتيجة هذا الحمل ينسب إلى الزوج إذا أتت به الزوجة خلال سنة شمسية من تاريخ الوفاة أو الطلاق، حسب المعمول به قانونا الآن، أخذاً برأي الإمام محمد بن عبد الحكم من فقهاء المالكية، غير أن السنة عنده قمرية – كما هو نظام التقويم الإسلامي في جميع الأمور – والقانون اعتبرها شمسية .

وإذا كان ثبوت نسب الأولاد إلى أبيهم وأمهم حقاً مقرراً لكل من الأب والأم، فهو أيضاً حق مقرر لهؤلاء الأولاد نحو أبيهم وأمهم، حماية لهم، وحتى لا يُترك ولد دون أب يُنتسب إليه، ودون أم ترعاه وتحنو عليه، فيتعرض للتشرد والانحراف .

---

248 . سورة الروم ٢١ .

249 . (النحل ٧٢) .

250 . (الأحقاف ١٥) .

251 . (لقمان ١٤) .

رابعاً : ثبوت حرمة المصاهرة :

من الحقوق والآثار المشتركة المترتبة على عقد الزواج : ثبوت حرمة المصاهرة بين الزوجين، حيث يُحرم على كل من الزوجين أصول وفروع الآخر : فيحرم على الزوج أصول زوجته وفروعها، لقوله تعالى:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وعَمَّاتُكُمْ وخَالاتُكُمْ وبَنَاتُ الأَخِ وبَنَاتُ الأُخْتِ وأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ورَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾[252] ،كما يُحرم على الزوجة أصول زوجها وفروعه، لقوله تعالى بعد النص السابق مباشرة﴿ وحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾وقوله تعالى﴿ ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [253] .

خامساً :ثبوت التوارث بينهما

وهو آخر الحقوق المشتركة بين الزوجين، حيث يرث كل من الزوجين الآخر، إذا توفى أحدهما أثناء قيام العلاقة الزوجية بينهما حقيقة أو حكماً، وتحققت شروط الميراث وانتفت موانعه، فالزوج يرث زوجته إذا توفيت قبله، ولو لم يكن قد دخل بها، كما ترث الزوجة زوجها إذا توفى قبلها، ولو لم يكن قد دخل بها كذلك، لقوله تعالى ﴿ ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ ولَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ ولَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ولَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ ولَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ ولَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[254] .

---

252 . (النساء ٢٣) .

253 . (النساء ٢٢) .

254 . (النساء ١٢) .

المطلب الأول

حقوق الوالدين

لقد أولى الإسلام عناية خاصة للأسرة وللمحافظة عليها من خلال تحديده للحقوق المترتِّبة على أفرادها تجاه بعضهم البعض، وذلك كي تُصان الأسرة بصفتها اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الذي ينشده الإسلام .

ولما كان الوالدان هما حجري الأساس في بناء الأسرة وتنشئة الجيل، نجد القرآن الكريم يصرح بعظَم مكانتهما، ووجوب الإحسان إليهما وبرهما .

يقول اللغويون: "إن البر كلمة جامعة لكل صفات الخير". وبر الوالدين : التوسع في الإحسان إليهما .

وإذا كان عصرنا يواكبه طغيان البشر، وتمزق الصلات، وتقطع الروابط حتى لقد أصبح الأقارب كالغرباء ولا يكاد يمر يوم حتى تطالعنا الصحف بأحداث جسام تكشف عن ذلك الخلل الذي أصاب الأسرة المسلمة فمن الخير أن تكون لنا وقفة مع النفس، نعود فيها إلى ماضينا وتراثنا، وديننا وقيمنا وأن نمتثل لوصية الله سبحانه وتعالى بالوالدين، وما تضمنه من إحسان القول والفعل، وما تهدينا إليه من رقة المعاملة، وجميل المعاشرة حتى يظل المسلمين – على جميع العصور – طابعهم وأخلاقهم وقيمهم .

فليس من المسلمين من أهان أمه وأباه،

وليس منا من قطع رحمه وذوي قرباه ،

وليس منا من لم يستجب لأوامر الله وسنة رسوله ،

قال الحق تبارك وتعالى ﴿ وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾[255]، قال أبو بكر الأنباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم إنما هو من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء في اللغة قطع الشيء بإحكام وإتقان وقوله ﴿ وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾ هو البر والإكرام [256] .

وأما ما ذكر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من بر الوالدين : فقال الشيخ رحمه الله بسنده عن معاذ رضي الله عنه قال أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم : ((لا تعق والديك، وإن أمراك

---

255 . (الإسراء ٢٣) .

256 . (أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤٧/١٥) .

أن تخرج من أهلك ومالك))[257]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال جاء رجل يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد فقال :

((أحيّ والداك)) قال الرجل : نعم قال صلى الله عليه وسلم ((ففيهما فجاهد))[258]

ومن فائدة الحديث أنه يؤكد على فضل بر الوالدين وتعظيم حقهما وكثرة الثواب على برهما وقوله : ((ففيهما فجاهد)) أي جاهد نفسك وجاهد الشيطان في تحصيل رضاهما وإيثار هواهما على هواك ما دام ذلك لا يخالف ما أمر الله به، وقيل في خدمتهما، قال جمهور العلماء : يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين، لأن برهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية، وهل يلحق الجد والجدة بالأبوين في ذلك، الأصح عند الشافعية نعم .

وفي بر الوالدين للأم درجة أكبر في هذا البر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله أي الناس أحق مني بحسن الصحبة؟ قال: أمك، قال: ثم أمك، قال : ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أبوك [259]، وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب))[260] .

وعن علي بن أبي سلامة واسمه خداش بن سلامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أوصي الرجل بأمه، أوصي الرجل بأمه، أوصي الرجل بأمه، أوصي الرجل بأبيه، أوصيه بأبيه، أوصيه بمولاه الذي يليه، وإن كانت فيه أذى يؤذيه)) [261]

ويصل بر الوالدين وصلة رحمهما حتى بعد موتهما : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))[262]، وفي حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((سبع يجري أجرها للعبد بعد موته وهو في قبره : من علم

---

257 . (أخرجه أحمد في مسنده) .

258 . (أخرجاه الصحيحين) .

259 . (أخرجاه الصحيحين) .

260 . (أخرجه أحمد في المسند، ١٣٢/٤) .

261 . (أخرجه أحمد في المسند، ٣١١/٤) .

262 . (أخرجه مسلم في صحيحه) .

علماً، أو أكرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بني مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له))[٢٦٣] .

مسئولية الآباء والأمهات عن عقوق الأبناء : -

إن كثيرا من الآباء والأمهات يشكون من عقوق الأبناء أو من سلوك الأبناء وينسى الآباء والأمهات أن فرصة التربية قد ضاعت منهم، إما في زجر الأبناء في وقت لا يستدعي الأمر إلى زجر، أو في التقليل من شأن الأبناء، في وقت يحتاج فيه إلى من يعتني به ويرعاه .

ومضت السنوات، والأب غافل عن ابنه إما بالتجاهل لحياة ابنه وما يلزمها في كل مرحلة، أو بالغرق في نمط من الحياة بعيداً عن ضرورة رعاية الأبناء، والأم كذلك لاهية عن الابنة في أمور أنستها مهمتها الأساسية في الحياة فلا تأخذ الابنة من أمها حناناً وقت الاحتياج إلى الحنان، ولا تلقي الابنة حزماً وقتما تحتاج إلى حزم، ولا تنال الابنة حق الصداقة والفهم، وقت إن احتاجت البنت إلى صداقه الأم فساد التنافر جو الأسرة باسم الحياة المعاصرة . والعجيب أننا لو تأملنا المجتمعات التي يقال عنها " معاصرة "، لوجدنا علماء تلك المجتمعات يعودون إلى منهج الإسلام، ليأخذوا منه قواعد التربية الصحيحة للأبناء لا كدين من عندنا يجب عليهم إتباعه ولكن كناحية اجتماعية تضمن لهم سلامة حياتهم الاجتماعية .

ففي وجود الحنان والاحترام والمودة بين الزوجين، ينشأ الطفل متمتعا بالوجدان الصافي لتلقى مسئوليات الحياة . والحزم والاحترام يعطى للطفل ذاتيته وتعليمه منهج الدين من السابعة إلى الرابعة عشر، ليعرف أن المؤمن هو الإنسان الذي يتقن عمله، حتى تصلح حياته بهذا العمل، وأن يعطي من الجهد والتعليم ما يجعله متدرباً على تحمل المسئولية ومعرفة فن إدارة الحياة وفق منهج الله تعالى .

وفى وجود صداقة وفهم وصحبة في ضوء الإيمان، ليكون الشاب متقبلاً للحياة المؤمنة، مخلصاً في أداء عمله . واعياً بمسئولياته، فيقوم المجتمع على أفراد منسجمين بالإيمان مع أنفسهم، ومع الكون الذي خلقه الله عز وجل .

وإذا كان الحق سبحانه أوصى الآباء بالأبناء، كما أوضحنا، وصى الأبناء بالآباء وكأن ما يزرعه الأب والأم في صغيرهما ينفعهما في كبرهما فقال تعالى ﴿ وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ

---

[263] . (أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد، ١٦٧/١) .

وبالْوَالدَيْنِ إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ .

حتى لا يوجد إنسان في المجتمع، وهو لا يتحمل مسئولية من أحسنوا تربيته، ومسئولية الآباء الذين تقع عليهم مسئولية حُسن تربيتهم، وذلك حتى يتحقق للمجتمع الراحة والأمان والانسجام والتوازن الاجتماعي .

المطلب الثاني

حقوق الأولاد "حقوق الطفل في الإسلام"

مدخل :

إن الأسرة هي التربة التي تنمو فيها بذرة الطفل، فإذا كانت هذه التربة، تربة صالحة وجيدة لتنمو فيها البذور، سوف تنتج منها بذور صالحة ونافعة للمجتمع، وإذا كانت هذه التربة سيئة، سوف تنتج منها بذور مسمومة، تصيب المجتمع بآفات عدة .

لذلك كان من الجدير أن نربط حقوق الطفل بحقوق الأولاد في الأسرة، وذلك لأهمية تأثير الأسرة علي الطفل، ولأن الأسرة هي المسئولة الأولي عن تطبيق أولويات حقوق الطفل، وذلك بالتربية والنشأة الإسلامية الصحيحة .

حقوق الطفل في الإسلام :

١_ حسن استقبال المولود ذكراً كان أو أنثي :

لأنه هدية الله وعطيته، فهو سبحانه الخالق، فقد قال سبحانه وتعالي : ﴿ لِّلَّه مُلْكُ السَّمَوَات والأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إنَاثاً ويَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإنَاثاً ويَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [٢٦٤] .

وكانت هذه الوصية هي مفتاح السعادة لقلب الوالدين لرضائهما بما قسمه الله وعدم التضجر تحت أي شعارات اجتماعية ، فالله واهب البنين وواهب البنات وهو واهب الحياة من هنا كان احترام هذه التباينات والحقوق واجب شرعي لا يجوز الاعتداء عليها .

٢_ الآذان في أُذن المولود :

لأن المولود خامة طيبة علي الفطرة فيسهل تشكيله، كان التنبيه بالأذان في الأذن اليمني بألفاظ الآذان، والإقامة بألفاظ إقامة الصلاة بالأذن اليسرى، طرداً للشيطان وحفظاً للمولود، لينطبع في ذهنه من أول لحظة أن الله أكبر من كل شيء، لأنه خالقنا ومُحيينا ومميتنا، وأن الصلاة لله عز وجل هي مفتاح السعادة وينبوعها وسر الفلاح والنجاح بأدائها، وهذه أعظم تحويطة للمولود، كما جاء في حديث شريف رواه العديد من الأئمة : " عن عبيد الله بن أبي رافع عن

---

[264] . سورة الشورى ٤٩، ٥٠ .

أبيه قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة [٢٦٥] .

٣_ حق النسب :

إن حق نسب المولود من أهم الحقوق التي يدعو إليها الشارع الحكيم ولا يجوز التفريط بهذا الحق، وفقد المولود حقاً هاماً من حقوقه الأساسية في الحياة الكريمة، يجعل شخصيته غير متوازنة، ويؤثر علي علاقاته الاجتماعية عندما يصبح ناضجاً، ويعاني من انعكاسات تربوية قد تجره إلي الانحراف، فمن الطبيعي أن يكون لكل إنسان نسب يفتخر به ويعتز بوالديه طوال عمره، والله سبحانه وتعالي أمر بالمحافظة علي حق النسب، هذا الحق الذي لا يوازيه أي حق آخر، كما أمر الحق تبارك وتعالي الناس بدعوتهم لتنفيذه .

قال الله تعالي : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ومَوَالِيكُمْ ﴾ [٢٦٦]

قال عمر رضي الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل : لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء، وتنازع الأكفاء لكان تعلمها من أحزم الرأي، وأفضل الثواب .

٤ - تسمية المولود اسماً طيباً لا يُعاير به، ولا يُتخذ هزواً بسببه :

ومن حق الطفل على من يتولى أمره أن يختار له اسماً حسناً يفتخر به بين أقرانه وزملائه، فدعانا الإسلام الحنيف إلى اختيار الأسماء الحسنة لأبنائنا ؛ ليكون الإسم نداءً طيباً محبباً إلى النفس، فهو حق من حقوق المولود ؛ لاختيار الأسماء الحسنة له وتجنب الأسماء المكروهة والمحرمة، وإن أفضل الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وما يـــُبـــشر به ولا يُنفر منه، وهذا حق للطفل في الإسم الحسن ؛ لأنه يؤثر على حياة الطفل وعلى نفسيته طول عمره إذا كان سيئاً، كما أن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم وأسماء آبائهم، على أن تكون التسمية منذ أول يوم من ولادته أو في اليوم السابع من ولادته مع عقيقة، ففي حديث شريف عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " .

وفي حديث شريف آخر عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

---

265 . قال أبو عيسي هذا حديث حسن صحيح . (رواه أحمد في مسنده :٢٢٧٤٩) .

266 . (الأحزاب ٥) .

أحب الأسماء إلى الله عبد الله و عبد الرحمن "، وفي حديث شريف آخر عن أبي وهب الجشمي وكانت له صحبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب و مرة ... "، كما يحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف : " من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة، وأن يحسن اسمه، وأن يزوجه إذا بلغ " .

كما أمرنا الإسلام بتحنيك الطفل وحلق شعره والتصدق بزنته فضة أو ذهباً .

وهذه التوجيهات النبوية الغرض منها أن يبارك الله في المولود وينشأ في بحبوحة من السعادة والهناء .. ففي صحيح مسلم باب عن استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه .

والتحنيك هو تدليك فم المولود بتمر يمضغ ثم يوضع جزء منه على الإصبع وإدخال ذلك في فم الطفل وتحريك الإصبع بالتمر الممضوغ، ثم في جهات فم الطفل، والغرض من ذلك تقوية أعضاء فم الطفل وداخل فمه من لسان وأسنان وحلق، ويستحب أن يفعل ذلك من هو معروف عنه الصلاح والتقوى .

وكما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في ربط الولادة بالتحنيك حتى يشب الطفل قوياً سليماً في حديث رواه العديد من الأئمة، فعن أبي بردة عن أبي موسى قال : " ولد لي غلام فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة " .

٥_ حق الرضاع :

الرضاع أول حقوق الطفل على أمه :

من أهم الحقوق وأولها للطفل على أمه هو حق الرضاعة، وهذا الحق من الحقوق الأساسية للطفل عقب ولادته، والقرآن الكريم قرر هذا الحق وحدد المدة القصوى لرضاعة الطفل، قال تعالى : ﴿ والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾[٢٦٧] .

وغذاء الطفل من حليب أمه الذي أجراه الله في صدرها، حيث هدى الله الطفل ليقبل على ثدي أمه بشكل طبيعي، وإن هذا الغذاء لا يعادله أي غذاء صناعي، (ولبن الأم هو الغذاء الإلهي الذي أعده الله تعالى وأجراه حقاً للطفل، وهو أنسب وأصح غذاء له، وقد أعد الله تعالى

---

267 . (البقرة : ٢٣٣) .

في الأيام الثلاثة الأولى في لبن الأم سائلا خاصا يسد حاجة الطفل إلى الغذاء في أول حياته، ولهذا السائل الخاص أثره في إصلاح الجهاز الهضمي لدى الطفل .

والأم المرضع تستشعر بأنها تؤدي واجبها تجاه طفلها، ويخالجها شعور خاص بطعم الأمومة التي تجيش بها عواطفها، فتقوى وجدانيا ومعنويا) [٢٦٨] .

لقد أكد الإسلام على إرضاع الأم وليدها حفاظاً على حياة الطفولة وحمايتها، والرضاعة من العوامل المؤثرة على ما يكسبه الطفل من صفات الأم المرضع وأخلاقها عن طريق حليبها الذي يتغذى به بدنياً وسلوكياً، حيث تأثير الرضاع من امرأة سيئة الخلق لا بد من هذا ما ينفذ للطفل .

والعلماء المسلمون كذلك أكدوا على السلوك الأخلاقي لدى المرضع، وهذا الإمام الغزالي يركز على أهمية أخلاقية المرضع وأثر لبنها على أخلاقية الطفل، وينصح بعدم السماح للطفل أن يرضع من امرأة سيئة الخلق، فيقول : " بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة، تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي تعجنت طينته من الخبث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث".

وحث كثير من العلماء والمربين على أخلاقية المرضع بأن تكون متمتعة بصفات حسنة، وسلوك فاضل، و ابن سينا يؤكد حق الولد على أمه وأن تكون مرضعته سليمة من أي مرض يؤذي، فقال : (إن من حق الولد على والده، إحسان تسميته ثم اختيار ظئرٍ [٢٦٩] له كيلا تكون ورهاء (أي ذات خرق وسوء رأي) ولا ذات عاهة، فإن اللبن يعدي) .

٦ـ في ختان المولود :

الختان فى اللغة معناه : قطع القُلفة { أي الجلدة } التي على رأس الذّكر .

وفى الاصطلاح الشرعي : هو الحرف المستدير على أسفل الحشفة أي موضع القطع من الذكر وهو الذي تترتب عليه الأحكام الشرعية، كما روي الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " التقي الختانان فقد وجب الغُسل " . وفى رواية الطبراني : " إذا التقى الختانان وغابت الحشفة فقد وجب الغُسل، أنزل أو لم ينـــزل " .

والأحاديث التي تدل على مشروعية الختان كثيرة نجتزئ منها بما يلي :

---

[268] . الطفولة فى الإسلام / جامعة القاهرة : ا.د أحمد مصطفى عيسي أستاذ طب الأطفال – ص (٤٠ – ٥٠) .

[269] . ظئرِ : مرضعة .

– روي الإمام أحمد فى مسنده من حديث عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الفطرة [٢٧٠] : المضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد [٢٧١]، والاختتان " .

ولقد شدد فى أمر الختان الإمام مالك حتى قال : " من لم يختتن لم تجز إمامته، ولم تقبل شهادته "، روي الإمام أحمد وأبو داود، عن عثيم بن كليب عن أبيه عن جده، أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد أسلمت، قال : ألق [٢٧٢] عنك شعر الكفر واختتن "، كما روي حرب فى مسائله عن الزهري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أسلم فليختتن وإن كان كبيراً " .

أما بالنسبة لختان الأنثى فقد أجمع الفقهاء والأئمة المجتهدون على أن الختان مستحب للأنثى وليس بواجب، اللهم إلا فى رواية أحمد بن حنبل أنه يجب على النساء والرجال على السواء، بينما الرواية الثانية المروية عنه يجب على الذكور دون الإناث، وهذه الرواية الثانية وافقت ما أجمع عليه الأئمة الأعلام من الفقهاء والمجتهدين فى أنه مستحب وليس بواجب، ووافقت كذلك ما درجت عليه الأمة، وما توارثه جيلا عن جيل، فى أن الختان فى للمرأة مستحب وليس بواجب . وحجتهم فى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما شرع لأمة الإسلام الختان، كان يخص الرجال دون النساء، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم أمر امرأة بالاختتان، اللهم إلا حديث شداد الذي مر ذكره : " الختان سنة للرجال، مكرمة للنساء " . فإن فيه ما يشير إلى ذلك، وعلى فرض صحة الحديث فانه يرشد إلى الاستحباب دون الوجوب، لأن فى لفظ " مكرمة للنساء " دليلا قاطعا على الاستحباب فقط، والله أعلم .

ولعل الحكمة فى ذلك أن الاختتان للمرأة، يختلف شكلا، ويختلف حكما، ويختلف فائدة، كما هو ملحوظ ومفهوم

---

270 . الفطرة فطرتان : فطرة إيمانية تتعلق بالقلب وهى معرفة الله والإيمان به، وفطرة عملية وهى هذه الخصال المذكورة فى الحديث . فالأولى تزكي الروح، وتطهر القلب، والثانية تطهر البدن، وتزين المظهر، فكان رأس فطرة البدن " الختان " .

271 . الاستحداد : حلق الشعر الذي يخرج حول الفرج .

272 . ألق عنك : أي احلق رأسك .

٧_ الرعاية للمولود في الطفولة المبكرة :

خلال رضاع الأم لطفلها، وبعد ذلك، تأتي مرحلة الطفولة المبكرة، التي يتم فيها مناغاة المولود ؛ حتى يستطيع أن يتكلم وينطق، لذلك جاء الحديث الشريف للنبي صلى الله عليه وسلم : " افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله "، ليدل على أهمية ذلك .

وأن تكون مناغاة الوالدين للطفل بكلمات مهذبة وعبارات متماسكة ؛ ليستطيع الطفل أن يقلدهما ويتعود منذ صغره على صحة النطق من مخارج الحروف الصحيحة وذلك من باب الضمان له ليتعلم النطق السليم .

تربية الطفل التربية الإسلامية

فضل التربية الإسلامية وأهدافها :

عن منهج الإسلام في التربية يمثل بلوغ الكمال الديني فهو خاتم الأديان وأكملها، استقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم في الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها، وأتمه، قال تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ﴾[٢٧٣] .

فالتربية الإسلامية يمكن تعريفها أنها : " مجموعة المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، والتي ترسم عددا من الإجراءات والطرائق العملية يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكا يتفق وعقيدة الإسلام .

ومحور التربية الإسلامية يقوم في الإسلام على تربية الطفل، وإعداده الكامل السليم بتوجيهه التوجيه الصحيح، ليأخذ مركزه اللائق في المجتمع الذي يعيش فيه، بحيث يكون فعالا، معطاء ومؤثرا .

" وأهداف التربية هي اتجاهات يبحث عنها المربون لتوجيه أولئك الذين يقعون تحت رعايتهم " وهدف التربية الإسلامية ومنهجها يتجه إلى الإنسان المسلم : جسمه، وروحه، وعقله . والإسلام يعالج النفس البشرية جسما وعقلا وروحا ممتزجة مترابطة في كيان واحد . فتحرر عقله، وتهذب نفسه، وتطهر وجدانه . وتوازن بينها .

والتربية ليس المقصود بها الطفل الذكر فقط، فللإناث حق أيضا مثل الذكور، وفضل التربية يطال الجميع إناثا وذكورا، يقول محمد علي قطب : " ..... إن التربية عموما مطلوبة ومأمور

---

[273] . سورة المائدة آية رقم ٣

بها دون تمييز بين جنس و آخر، بين ذكر و أنثى، وهي بهذا تأخذ طابع المسؤولية الاجتماعية، والكينونة الأسرية، فيتحتم على الأبوين القيام بأدائهم على أكمل وجه وأحسن صورة، لتؤدي غرضها من بعد في خلايا اجتماعية أخرى كي ينتظم البناء العام .

ومن الأمور الجلية الواضحة في أهداف التربية الإسلامية : تركيزها على شخصية الفرد المسلم ليكيف نفسه وبيئته ومجتمعه كما يطلب الشرع الحنيف، والتربية العملية جوانبها متعددة، وكلها ترتبط بالطفل منذ ولادته، وبفضلها ينشأ الطفل متزن الشخصية، لها سماتها الفاضلة، وسلوكها الحسن، وتميز الإنسان عمن كانت تربيته ناقصة في إحدى النواحي .

فالأسرة، والمجتمع، والمدرسة، والمربي، والمنهج التربوي التعليمي، كلها تسعى لتحقيق التربية الصحيحة، والنمو السليم للطفل بمراعاة إمكاناته، وقدراته الفطرية .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[274] فالمتمعن في الآية الكريمة يدرك أن وسائل بناء الشخصية الإنسانية على أساس من النقاء والطهر واضحة جلية ... فالتزكية تمام الأخلاق والتعليم، وتمام معرفة الأوامر والنواهي، والحقوق، والواجبات، كما أنها تفيد معنى زوال الجهل، وتعليم الحكمة هو أعلى درجات التعليم ؛ لأنها تعني في عرف العلماء الإصابة في القول والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة – بعد تزكية النفس بالأخلاق الحميدة والفضائل السامية – فإنه يكون حينئذ قد حصل الخير كله تصديقا لقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ومَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[275] .

والإمام الغزالي يحدد الأهداف التربوية فيقول : " ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها " وفي هذا تأكيد على أنه يسعى لبناء شخصية متكاملة، تنمو في كافة الأبعاد والجوانب الروحية، والنفسية، والعقلية، والاجتماعية، والجسمية بشكل مترابط ومنسق، شخصية تعرف أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه .

---

274 . سورة الجمعة آية رقم ٢

275 . سورة البقرة آية رقم ٢٦٩

٨ - عدم التفرقة بين الأبناء من الذكور والإناث كإحدى حقوق الأولاد:

إن الإسلام يأمر بعدم التفرقة بين الأبناء من الذكور والإناث، وتعتبر هذه المشكلة من أهم المشاكل التي تواجه الأسرة فى المجتمعات القديمة والحديثة، وهى مشكلة تؤثر فى البناء النفسي لكل منهما، فبعض المجتمعات تفضل الولد على البنت، وبعض المجتمعات تقدر البنت على الولد . وفى كل من هذه المفارقات عيوب خطيرة تؤثر فى النمو النفسي، لأبنائنا، لهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفرقة بين الأبناء، فقد ورد فى أحاديث نبوية شريفة، منها ما رواه النعمان بن بشير قال : نحلني أبي نُحلا قال إسماعيل بن سالم من بين القوم نحله غلاما، قال : فقالت له أمي عمرة بنت رواحة : ائتِ النبي صلى الله عليه وسلم فأشهده، قال : فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال : إني نحلت ابنى النعمان نُحلا، وإن عمرة سألتني أن أشهدك على ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم : ألك ولدٌ سواه ؟، قال : قلت نعم، فكلهم أعطيت مثل ما أعطيت النعمان ؟، فقال : لا، فقال : بعض هؤلاء المحدثين هذا جور، وقال بعضهم هذا تلجئة، فأشهد على هذا غيري، وقال مغيرة فى حديثه : أليس يسرك أن يكونوا لك فى البر واللطف سواء ؟ قال : نعم، قال : فأشهد على غيري، وذكر مجالد فى حديثه : إن لهم عليك من الحق أن تعدل بينهم كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك [٢٧٦] .

ونجد بعض المجتمعات تبدأ عملية العزل بين الجنسين فى سن مبكرة، وأخرى لا تفرق بينهما بدرجة كبيرة، وإن كانت قيم الذكورة تهيمن على أغلب المجتمعات وتعكس حالة هذه المجتمعات بقيمها وعاداتها وثقافتها، وتشير قيم الذكورة إلى التسلط والسيطرة والعدوانية، على حين تشير الأنوثة إلى الخضوع والحياء، وهذه الأمور مرتبطة بالتكوين البيولوجي والنفسي للجنسين : الذكر والأنثى . وكذلك يجب الحرص على عدم تفضيل الأبناء على بعض، وإعطائهم نفس حقوق المعاملة والتعليم والتوجيه، والتربية، وبالطبع لا تكون المعاملة متساوية تماما، حيث الاختلاف البيولوجي، يؤدي إلى اختلاف فى نهج وأسلوب التربية، ولكن لا يتم تمييز أحد الجنسين على الآخر .

ونلاحظ أن الإسلام حثنا على عدم التفرقة بين معاملة البنات ومعاملة البنين، مصداقا لقوله الرسول صلى الله عليه وسلم : " من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر عليها ولده

---

276 . رواه أحمد .

أدخله الله الجنة " [٢٧٧]، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتز دائماً بأنه (أبو البنات) .

ولقد رد الإسلام الاعتبار للأنثى، ومنع وأدها، كما كان يفعل أهل الجاهلية، بل حارب كرهها والتشاؤم بها، وكرم الله بني آدم على العموم ولم يخص ذلك الولد دون البنت، ولا الرجال دون النساء، وأقر الإسلام استقلال البنت بشخصيتها الاقتصادية والمالية، لأن لها ذمة مالية مستقلة، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ به بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ واسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [٢٧٨] .

لقد رغّـــب الإسلام فى حب البنات، لأن من أحسن رعايتهن دخل الجنة، ففي حديث شريف رواه العديد من الأئمة عن أيوب بن بشري الأنصاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة " .

حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن سهيل بهذا الإسناد قال : ثلاث أخوات أو ثلاث بنات أو بنتان أو أختان " [٢٧٩] .

فالحث على عدم التفرقة فى المعاملة الأسرية بين الولد والبنت وفى التربية وفى حُسن الرعاية أصل من أصول الإسلام، فلكل منهما قيمة إنسانية فى الحياة، وهما من أصل واحد هو آدم عليه السلام، ولذلك لا تكون التفرقة بين الولد والنبت حتى لا تتسبب هذه التفرقة فى آلام نفسية تؤثر على التنشئة المتكاملة لكل منهما .

---

277 . رواه البيهقي فى شُعب الإيمان .

278 . سورة النساء آية ٣٢ .

279 . رواه أبو داود فى كتاب الأدب ٤٤٨١، ورواه أحمد فى مسند المكثرين ٨٠٧١ .

المطلب الثالث

حقوق الأقارب والرحم

صلة الرحم من أخلاق الإسلام العالية وهى تعنى الحنان والرقة والإحسان ولأهميتها اشتق الله اسمها من اسمه الرحمن، كما تعني صلة الرحم الإحسان إلى الأقربين وإيصال ما أمكن من الخير إليهم ودفع ما أمكن من الشر عنهم .

تعرف الصلة في اللغة أنها الوصل وهو ضد القطع، ويكون الوصل بالمعاملة نحو السلام، وطلاقة الوجه، والبشاشة، والزيارة، وبالمال، ونحوها . والرحم هي كل من تربطك به صلة نسبية من جهة الأم أو الأب، ويدخل في ذلك من تربطك به صلة سببية من النكاح أيضاً وهم الأصهار .

ولصلة الرحم فضلٌ كبير بينه القرآن الكريم وكذلك السُنة النبوية الشريفة وذلك لبيان أهمية قيام صلة الرحم في المجتمع الإسلامي ولتوضيح الجُرم الكبير الذي يقع فيه قاطع رحمه فنجد الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز أقسم بها وقرنها بالتقوى فقال عز من قائل :﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [280] .

وقال صلى الله عليه وسلم " من سره أن ينشأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه " وفي رواية أخرى : " من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه " .

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أفضل ؟ قال " اتقاء الله وأوصلهم برحمه . وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر " [281] .

وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : قدمت على أمي، فقلت يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي مشركة أفأصلها ؟ قال : نعم – وفي رواية أفأعطيها ؟ قال "نعم صليها".

وقال عليه السلام " الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان " أخرجه الترمذي.

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملا بقوله تعالى: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، قال: يا رسول الله، هو في سبيل الله، وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام: "وجب أجرك على الله قسمه في أقاربك .

---

280 . سورة النساء آية رقم ١ .

281 . رواه أحمد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله : أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته " [٢٨٢] .

إذن لابد على الإنسان المسلم أن يصل رحمه، فإن أواصر المجتمع المسلم يجب وأن تبقى دائماً متصلة ببعضها، ولن تتصل ببعضها إلا إذا قام المسلم بأداء حقوق والديه وبر برحمه .

[282] . متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

المطلب الرابع

الطلاق

لقد أباح الإسلام الطلاق، لأن الزواج قد يبنى على الاستلطاف المزاجي أي : هي أعجبته وهو أعجبها . ثم بعد ذلك قد تجد أمورا تجعله يبغضها أو تجعلها تبغضه، فهل يكون من الحكمة أن نرغم اثنين على أن يعيشا معا وأحدهما كاره للآخر ؟

أي حياة هذه ؟ وأي سكينة توجد في بيت تعيش المرأة فيه قهرا عن الرجل ويعيش الرجل فيه قهرا عن المرأة ؟ والزواج سكينة واطمئنان، ومودة ورحمة، فالفساد بتحريم الطلاق أكثر من الفساد بوجود الطلاق .

إذن فكان لابد من تشريع الطلاق .

الأسباب الداعية إلى الطلاق وتفكك بعض الأسر :

لو نظرنا إلى الأسباب الداعية للطلاق لوجدنا أن ذلك راجع لمخالفة المتزوجين لمقاييس الإسلام، ولو أن طالب الزواج دخل على الزواج بمطلوبات الله تعالى فيه لما تفشت ظاهرة الطلاق التي نراها اليوم، وليس ذلك خاصا بالزوجين فقط، لكنه يتعلق بولي أمر الزوجة، حيث يقبل زوجا لمن هي في ولايته، على غير مقاييس الله ومطلوبات الدين فعليه أن يرفضه، أما إذا قبله بغير مقاييس الدين، فمن العدل أن يحدث له كثير من المتاعب ولو لم تحدث هذه المتاعب لكان ذلك مخالفا لمنهج الله، ولشككنا في هذه فالمنصف يرى أن متاعب الطلاق اليوم شهادة للدين لا عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من ترضون دينه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد " [٢٨٣] .

حق المرأة في التطليق :

يراد بالتطليق التفريق عن طريق القاضي، فإذا لم تستقم الحياة الزوجية كما أرادها الشرع ولم تحقق الغرض الذي استهدفه منها، وتحولت من حالة السكن والمودة والرحمة إلى حياة يسيطر عليها الشقاق والكراهية الممقوتة ولحق بطرفيها أو بأحدهما الأضرار البالغة التي استحال دفعها،

---

283 . رواه الترمذي ١٠٨٥ .

فالواجب على الزوج حينئذ أن يفارق بالمعروف بما يملك من حق الطلاق، فإذا لم يفعل كان ظالما، ولا يجوز للزوج – كما يحدث في بعض الحالات – أن يتعنت إذا طلبت الزوجة الطلاق، يقول الله عز وجل " ... ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا.. " [٢٨٤].

فإذا ما رفع الأمر إلى القاضي فعليه رفع هذا الظلم لأن له ولاية رفع المظالم ويجوز للمرأة طلب التطليق في حالات منها :

١ - نشوز الزوج :

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ وإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً والصُّلْحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [٢٨٥]

والنشوز مأخوذ من النشز وهو الارتفاع من الأرض والمفروض فيها أن تكون منبسطة فإن وجدنا فيها نتوءا فهذا نسميه نشوزا، إن الرجل أخذ المرأة سكنا له، وبات بينهما مودة ورحمة، فقد أفضى إليها وأفضت إليه، فإن ضاقت أن يستعلي عليها زوجها بالنفقة أو بالاحتكار .. أو ضاعت منها مودته أو رحمته .. فهذا كله نشوز فهو قد استعلى عن المستوى الذي يجمع الزوجين .

وقوله تعالى ﴿ أَوْ إِعْرَاضاً ﴾ الإعراض هو أنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها رغم أنه يعطيها كل حقوقها . هنا على المرأة أن تعالج هذه المسألة، إنها قضية بين الإثنين، قال الله تعالى عنهما ﴿ وقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ ﴾ .

٢ - الخُلع :

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ومَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٢٨٦] .

الحق سبحانه أراد أن يجعل للمرأة مخرجا إن أريد بها الضرر . وهي لا تقبل هذا الضرر فيأتي

---

284 . البقرة ٢٣١ .

285 . النساء ١٢٨ .

286 . البقرة ٢٢٩ .

الشرع ويقرر بأنهما إذا خافا ألا يقيما حدود الله فللمرأة أن تفتدي نفسها بشيء من المال شريط ألا يزيد على المهر .

وفي ذلك تروي جميلة أخت عبد الله بن أُبي وكانت زوجة ثابت بن قيس أنها ذهبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالت له : " أنا لا أتهم ثابتا في دينه ولا في خلقه، ولكني لا أحب الكفر في الإسلام "، لقد عاشت معه وهي تبغضه وتشعر أنها لن تؤدي حقه . ولا تريد أن تكفر بعشرة رجل كان المفروض لو أنها أحبته أن تعطيه من نفسها المودة والرحمة وصدق العاطفة، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم منها ذلك فقالت : لقد رفعت الخمار فوجدته في عدة الرجال وهو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأكثرهم دمامة وأريد أن أفلت منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقبل الحديقة وطلقها تطليقة " .

وردت المرأة الحديقة وبذلك خلعت نفسها من زوجها لأنها تخاف ألا تؤدي له حقا من حقوق الزوجية وافتدت نفسها بما قدمه لها من مهر .

الفصل الثاني

حقوق المسنين

يولد الإنسان صغيراً بعد أن يتكون فى بطن أمه .. ثم ينمو ويكبر ويتقدم به الزمن إلى أن يدخل فى مرحلة الشيخوخة، ويدخل فى عداد المسنين الذين هم آباؤنا وأمهاتنا وقد بلغوا من الكبر عتيا.. وعندما يصل الإنسان إلى هذه السن تقل المناعة فى جسده ؛ لأنه يصاب بالضعف فلا يقوى على عمل ماكان يمارسه فى شبابه وحيويته، ومن فضل الله ورحمته أنه جعل لكبار السن حقوقاً خاصة تتناسب مع ما قدموه فى شبابهم من حياة وكفاح وإنتاج وحيوية، لأن مراحل العمر هى : الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة (المسن) والهرم (الطاعن فى السن)، قال تعالى : ﴿ اللهُ الَذي خَلَقَكُم مّن ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَليمُ القَديرُ ﴾ [٢٨٧]، وقال عز وجل : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ومنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إنَّ اللَّهَ عَليمٌ قَديرٌ ﴾ [٢٨٨] ...

فالقرآن الكريم يجسد مشاكل المسنين فى الضعف الجسدى والوهن البدنى وعدم القدرة على تذكر المعلومات أو استيعابها ؛ ولهذا قال المفسرون عن هذه الآية الأخيرة : ﴿ أَرْذَلِ العُمُرِ ﴾ هو أخسه وأدونه وآخره الذى تضعف فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، ويحصل فيه قلة العلم وسوء الحفظ، وخصه الله بالذيلة، لأنه حلة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، وهذا لغير المسلم الحافظ للقرآن، الذين يرحمهم الله الرد إلى أرذل العمر ؛ لأن العالم المسلم والمؤمن والحافظ للقرآن لا يزداد فى طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله، فيحفظ عليه عقله ويقوى ذاكرته ويزداد معرفة ؛ لأن من حفظ الله فى صباه وشبابه حفظه الله فى حالة كبره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره .

لقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باحترام الكبير وتوقيره وذلك فى الحديث الشريف عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن عكرمة عن ابن عباس يرفعه إلى النبي قال :" ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ".

---

287 . سورة الروم آية رقم ٥٣ .

288 . سورة النحل آية رقم ٧٠ .

إن الله سبحانه يرفع قدر من شاب فى الإسلام، وقدم عملاً جيداً، وابتكر فى أسلوب الأداء وأجهد نفسه فى عمله فى شبابه بصدق وإخلاص، فقد روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تنتفوا الشيب فإنه نور المسلم، من شاب شيبة فى الإسلام كتب الله له بها حسنة وكفر عنه بها خطيئة ورفعه بها درجة " .

كما أنه يجب علينا أن نلتف حول المسنين ومؤانستهم وعدم تركهم للوحدة فقد روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من من يكرمه عند سنه " .

وفى هذا السياق، دعانا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن نعرف قدر الكبار ونقدر مسيرتهم وكفاحهم فى السابق من أجلنا، وفى ذلك يروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا "، وفى رواية : " ويعرف حق كبيرنا " .

فالشيخوخة هنا لها الحق فى الإكرام، والمسن يكرم لما له من فضل علم، أو سبق أو دين أو أبوة أو رحم .. الخ، ولكن الإكرام هنا للشيخوخة وحدها، ولا يهم أن يكون بعد ذلك عالماً أو مسلماً، المهم أنه كبير ومسن يجب له الإكرام ؛ لأن ذلك من حقوقه علينا، وعلينا أن نتأمل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثواب الذي يحصل عليه الشخص من المعروف الذى يصنعه مع المسنين، لأن يصنع المعروف اليوم سيكون غداً فى حاجة ماسة إلى من يقدم إليه معروفاً، فإن من يصنع الخير لا يعدم جوازيه .

وإذا كان هذا الحديث النبوى الشريف لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أعطى حقوقاً كبيرة واسعة للمسنين، نظير ما قدموه من عطاء كبير طول حياتهم من عمل وعبادة وإنتاج، فإن يغرس فى نفوسنا أن نتأمل فى هذا المبدأ : (كما تدين تدان)، والحسنة تعود إلى فاعلها عندما يكون فى أشد الاحتياج لها، ويطالبنا هذا الحديث بالعمل على تقديم الخير ليعود علينا فى شيخوختنا ؛ لأن من خدم الناس فى صباه خدمه الناس فى شيخوخته ...

وفى فضل الشيوخ على المجتمع يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث الذى روى عن أنس بن مالك : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قال ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنه إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ خمسين سنةً لين الله عليه الحساب فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب فإذا بلغ سبعين سنةً أحبه

الله وأحبه أهل السماء فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته وتجاوز عن سيئاته فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى أرضه وشفع لأهل بيته " .

كما أن المسنين لهم فضل كبير ومنزلة خاصة وكبيرة عند رب العزة، ويوضح ذلك ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ألا أنبئكم بخياركم قالوا بلى يا رسول الله . قال : خياركم أطوالكم أعماراً وأحسنكم أخلاقاً " .

حقوق متنوعة للمسنين :

وهناك جملة من الحقوق الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية المتنوعة، التى شرعها الإسلام للمسنين ؛ لتحفظ لهم كيانهم وحياتهم ومكانتهم الاجتماعية، وترعى حقوقهم المختلفة:

* توجيه الصغار ليكونوا البادئين بالسلام على الكبار، فلقد دعانا الإسلام لتوقير الكبار، ومن ذلك التوقير تحية الكبار والبدء بالسلام عليهم، وفى ذلك تكريم لهم، ورفع من روحهم المعنوية، فلقد أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الصغير بإلقاء السلام على الكبير، وجاء فى ذلك التوجيه النبوى الذى رواه أبو هريرة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير " .

* من حقوق المسنين أثناء الحرب : شرع الإسلام للمسنين حماية كاملة أثناء الحرب، فحمى الإسلام المسنين أثناء الحرب من وحشية المحاربين، ووضع النبى (صلى الله عليه وسلم) مجموعة من الآداب الحربية التى يجب مراعاتها منها : العناية بالشيوخ وكبار السن، فعن سليمان بن بريدة قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا بعث جيشاً أو سرية دعا صاحبهم فأمره بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال : " اغزوا باسم الله وفى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً " ...

* تخفيف التكاليف الشرعية عن المسنين فى حالة عدم مقدرتهم على الوفاء بها، وهى حقوق للمسنين شرعها الإسلام لحمايتهم والعناية بهم وتقدير شيخوختهم، مثل دعوة الإمام للتخفيف فى الصلاة وجواز الصلاة للمسن وهو جالس عند الإحساس بالتعب أو وهو مستلق الإنابة فى الحج .. وكل ذلك بينته السنة النبوية :

– فلقد روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإنه فيهم الضعيف والشيخ الكبير وذا الحاجة " .

– كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : " أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) فى حجة الوداع والفضل بن عباس رديف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عبادة أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوى على الراحلة فهل يقضى أن أحج عنه ؟، قال : نعم " .

الرخصة للمسن بالإفطار فى نهار شهر رمضان فى حالة العجز عن الصوم وإطعام مسكين عن كل يوم أفطر فيه، لأنه لن يستطيع صومه، قال تعالى : ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وعَلَى الَذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢٨٩]، وقد نزلت هذه الآية فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم، بسبب ضعف جسمه وعدم قدرته على الصوم، فرخص له الإسلام هذه الرخصة، كحق من حقوق تكريم المسنين التى أقرها الإسلام .

* الأمر بتقديم الشيوخ المسنين والأكبر فى إمامة المصلين فى الصلاة، مصداقا لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذى روى عن مالك بن الحويرث قال : " انصرفت من عند النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال لنا أنا وصاحب لى : أذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما " .

وهكذا ... وضع الإسلام حقوقا متنوعة ومتكاملة للمسنين ليحميهم من ضريبة عدم المقدرة والتقدم فى العمر، وليوضح لنا منهاج التعامل معهم، حتى يعيشوا فى عزة وكرامة ....

---

[289] . سورة البقرة ١٨٥ .

الفصل الثالث

حقوق الجار

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وبِذِي القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ والْجَارِ ذِي القُرْبَى والْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ [290] .

لقد أقام الإسلام بأحكامه السمحة نوعاً من الترابط والألفة الاجتماعية ، هذا الترابط الذى يوجد بين الأفراد وبعضهم، فنجده يوصينا بالجار ولقد عبرت عن ذلك السنة النبوية الشريفة فى أحاديث كثيرة نذكر منها :-

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " [291]،

وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره "

وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره "

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه "

وقال صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه " ، قلنا : يا رسول الله : وما بوائقه ؟ قال : " غشمه وظلمه "

وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف " [292] .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله إن لى جارين فبأيهما أبدأ ؟ قال " بأقربهما منك باباً "

وقال صلى الله عليه وسلم : " من سعادة المرء الجار الصالح " [293] وبناء عليه : نجد أن الحق تبارك وتعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يبلغنا ويوصينا بالجار، فما أعظم هذا الدين الذى يجعل روابط المجتمع، روابط أصيلة، متمركزة وثابتة أصولها بأصول إسلامية قويمة تقينا من الجحود، جحود الإنسان على أخيه الإنسان، فالجار يشارك جاره فرحه، ويعيا فى مصيبته

---

290 . النساء ٣٦ .

291 . رواه البخاري فى صحيحه .

292 . أخرجه مسلم فى صحيحه .

293 . رواه أحمد فى المسند (٣ / ٤٠٧) .

وحزنه، ويشد بأزره فى مرضه وينصره إذا استنصره، وهذا هو الاحسان إليه .

فالمسلم يعترف بما للجار على جاره من حقوق، وآداب يجب على كل من المتجاورين بذلها لجاره وإعطاؤها له كاملة، وعدم أذيته بقول أو فعل، والاحسان إليه وذلك أيضاً بأن يساعده إذا احتاج، يبدؤه بالسلام ويلين له الكلام، ويرشده إلى ما فيه صلاح دينه ودنياه يرعى جانبه ويحمى صماه، يصفح عن ذلاته، ولا يتطلع إلى عوراته، لا يضايقه فى بناء أوممر، ولا يؤذيه بميزاب يصب عليه، أو بقذر أو وسخ يلقيه أمام منزله .

وإكرامه باسداء المعروف والخير إليه لقوله صلى الله عليه وسلم : " يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة " [٢٩٤] .

وإذا ابتلى المسلم بجار سوء فليصبر عليه فإن صبره سيكون سبب خلاصه منه، فقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال له : " اصبر ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة اطرح متاعك فى الطريق، فطرحه، فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك ؟ فيقول، آذنى جارى، فيلعنون جاره حتى جاءه وقال له : رد متاعك إلى منزلك فإنى والله لا أعود " [٢٩٥] .

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي، فقال ابن مسعود : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

وشكا بعضهم كثرة الفأرة في الدار، فقيل له : لو اقتنيت هراً ؟، فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي !!

قلت : أين هذه الأخلاق الآن ؟! إن جيران اليوم لا يسترون عورة ولا يقبلون عثرة، ولا يغفرون ذنباً، ازدادت بينهم الكراهية .. وتفشت بينهم الأحقاد .. فكم من جار قد آذى جاره وخاصمه .. وكم من جار قد سجن جاره وعذبه !! .. ضاعت بينهم المبادئ .. وماتت بينهم الأخلاق .. إنك لا تكاد تمر على بيت اليوم إلا وتسمع ضجيجاً وعجيجاً .. تبلدت مشاعر الناس، وماتت الأحاسيس .. وضاع الذوق والأدب والحياء .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من هذا النوع من الناس : فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول " [٢٩٦] .

---

294 . أخرجه البخاري .

295 . رواه أبو داود وهو صحيح .

296 . رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة من الفواقر : إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء إن رأى خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك " [٢٩٧] .

أين أخلاق المؤمنين بين الجيران اليوم ؟ أين الرحمة التي أمر بها الإسلام ؟ أين الأدب والمعروف وحسن المعاشرة ؟! لقد جرف هذه القيم تيار الأنانية العاتي .

ألم يعلم هؤلاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم " [٢٩٨] .

ألم يصل إلى سمع هؤلاء ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اكسُني . فأعرض عنه، فقال : يا رسول الله اكسُني، فقال : " أما لك جار له فضل ثوبين ؟ " .

قال : بل غير واحد، قال : فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة " [٢٩٩] .

ألم يأت هؤلاء ما رواه ابن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كم من جار متعلق بجاره يقول : يارب سل هذا لم أغلق عني بابه ومنعني فضله " [٣٠٠] .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " أربع من السعادة : المرأة الصالحة، والسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنئ . وأربع من الشقاء : الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق " [٣٠١] .

من حق الجار عليك أن تعلمه ما ينفعه وأن تفقهه في أمور دينه .. وأن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر فأنت مسئول عن جارك يوم القيامة .. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال : " ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم" ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يفقهون ولا يتعظون " ؟

---

297 . قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد لا بأس به . الترغيب برقم (٣٧٧٩) .

298 . قال المنذري : رواه الطبراني والبزار وإسناده حسن . الترغيب (٣٧٨٠) .

299 . رواه الطبراني في الأوسط .

300 . رواه الأصفهاني، فاللهم غفراناً .

301 . رواه ابن حبان في صحيحه .

والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويفقهونهم ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة !! "، ثم نزل ... فقال قوم : من ترونه عني [302] بهؤلاء ؟، قال – عني – الأشعريين ! فإنهم قوم فقهاء، ولهم جيران من أهل المياه والأعراب ! فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر ! فما بالنا ؟، فقال رسول الله – مرة أخرى – : "ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا " .

فقالوا : يا رسول الله أنفطِّن غيرنا ؟ فأعاد عليهم قوله !

فأعادوا قولهم : أنفطِّن غيرنا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : ذلك أيضاً !

فقالوا : أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليعلموهم ويفقهوهم ويعظوهم . . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ لُعِنَ الَذينَ كَفَرُوا مِنْ بَني إسْرَائيلَ عَلَى لسَان دَاوُودَ وعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلكَ بمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [303] . [304]

قال الشيخ محمد الغزالي : معلقاً على الحديث: ((وأعتقد أن المسلمين في العصر الحاضر أحوج أهل الأرض إلى هذه النصيحة النبوية فإن تخلفهم الفكري والخلقي تسود له الوجوه)) [305] .

---

302 . بمعنى : قصد .

303 . سورة المائدة : ٧٨، ٧٩ .

304 . رواه الطبراني في ((الكبير)) .

305 . كنوز من السنة ص ١٤ .

الفصل الرابع

حقوق اليتامى

لقد اهتم التشريع الإسلامى بشأن اليتيم اهتماماً بالغاً من حيث تربيته ورعايته ومعاملته وضمان سبل العيش الكريمة له، حتى ينشأ عضواً نافعاً فى المجتمع المسلم . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليَتيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ [306]، وقال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ * فَذَلِكَ الَذي يَدُعُّ اليَتيمَ ﴾ [307]، وهاتان الآيتان تؤكدان على العناية باليتيم والشفقة عليه، كيلا يشعر بالنقص عن غيره من أفراد المجتمع ؛ فيحطم ويصبح عضواً هادماً فى المجتمع المسلم .

ومما يؤكد على حرص التشريع الإسلامي على اليتيم والتأكيد المستمر على العناية به وحفظه ؛ هو ورود كلمة (اليتيم) ومشتقاتها فى ثلاث وعشرين آية من آيات القرآن العظيم، وبالنظر فى نصوص القرآن العديدة فى شأن اليتيم، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسة، كلها تدور حول : دفع المضار عنه، وجلب المصالح له فى ماله، وفى نفسه، وفى الحالة الزوجية، والحث على الإحسان إليه، ومراعاة الجانب النفسى لديه .

يقول تعالى : ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا ميثَاقَ بَني إسْرَائيلَ لا تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وبالْوَالدَيْنِ إحْسَاناً وذي القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكينِ وقُولُوا للنَّاسِ حُسْناً وأَقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَليلاً مِّنكُمْ وأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [308]، فالإحسان إلى اليتيم متعين كما هو للوالدين ولذى القربى، كما قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ * فَذَلِكَ الَذي يَدُعُّ اليَتيمَ * ولا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليَتيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية : فلا تقهر اليتيم، أى : لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس باليتيم وأشفقهم عليه حتى قال حاثاً على ذلك : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً " .

---

306 . سورة الضحى ٩ .

307 . سورة الماعون : ١، ٢ .

308 . سورة البقرة : ٨٣ .

كما أمر عز وجل بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعد ذلك من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [309]، كما قال تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [310] .

وعد الرسول صلى الله عليه وسلم أكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا : يارسول الله، وما هن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " . ولخطورة ذلك الأمر، وجه صلى الله عليه وسلم من كان ضعيفاً من الصحابة ألا يتولين مال يتيم، فعن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم " .

واستمراراً لحرص التشريع الإسلامى على أموال اليتامى، أمر باستثمارها وتنميتها حتى لا تستنفذها النفقة عليهم، فلقد ورد عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " ألا من ربى يتيماً له مال فليتجر به، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة " . كما ورد عن عمر – رضى الله عنه – أنه قال : " اتجروا فى مال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة "، ومن هنا يلزم الولى على مال اليتيم استثمارها لمصلحة اليتيم على رأى كثير من أهل العلم بشرط عدم تعريضها للأخطار .

وجماعاً لكل ما سبق، أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكفالة اليتيم، وضمه إلى بيوت المسلمين، وعدم تركه هملاً بلا راع فى المجتمع المسلم، فقد أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً "، كما عد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه . فعنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه " .

ولقد وعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالأجر العظيم لمن تكفل برعاية الأيتام، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره، وغدا

---

309 . سورة النساء : ١٠ .

310 . سورة الإسراء : ٣٤ .

وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله، وكنت أنا وهو فى الجنة أخوين كهاتين أختان . وألصق إصبعيه السبابة والوسطى " .

كما جعل الإحسان إلى اليتيم علاجاً لقسوة القلب، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلاً شكا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين "، ورتب على ذلك الأجر العظيم، حيث يكسب المرء الحسنات العظام بكل شعرة يمسح فيها على رأس ذلك اليتيم، فعن أبى أمامة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وفرق إصبعيه السبابة والوسطى".

ولقد تمثل المجتمع المسلم تلك التوجيهات عملياً بدءاً من عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – حتى يومنا الحاضر، فلقد ثبت أن هناك العديد من الصحابة والصحابيات كفلوا أيتاماً ويتيمات وضموهم إلى بيوتهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : أبو بكر الصديق، ورافع بن حديج، ونعيم بن هزال، وقدامة بن مظعون، وأبو سعيد الخدرى، وأبو محذورة، وأبو طلحة، وعروة بن الزبير، وسعد بن مالك الأنصارى، وأسعد بن زرارة، وعائشة بنت الصديق، وأم سليم، وزينب بنت معاوية رضي الله عنهم جميعاً، وغيرهم كثير من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

كما عنى المسلمون قديماً وحديثاً برعاية الأيتام فرادى وجماعات كما قامت الدول الإسلامية المتعاقبة، أمراؤها وأغنياؤها وأفرادها بوقف الأوقاف الكثيرة عليهم، ومن ذلك ما ورد فى إحدى وثائق الأوقاف التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك وفيها : ((أن يكسى كل من الأيتام المذكورين فى فصل الصيف قميصاً ولباساً وقبعاً ونعلاً فى رجليه، وفى الشتاء مثل ذلك، ويزاد عليه جبة محشوة بالقطن)) .

كما ورد من مآثر صلاح الدين الأيوبى – يرحمه الله – أنه أمر بعمارة كتاتيب ووضع فيها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون فيها الأيتام، ويجرى عليهم الجراية الكافية لهم . كما ذكر الرحالة ابن جبير فى رحلته إلى دمشق، أنه شاهد محضرة كبيرة للأيتام لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الأيتام لكسوتهم وما يحتاجون إليه . كما أن الظاهر بيبرس أنشأ مكتباً للسبيل بجوار مدرسته، وقرر لمن فيها من الأيتام خاصة الخبز فى كل يوم، والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف، إضافة إلى توفير أدوات التعليم لهم من أقلام ومداد وألواح .

الفصل الخامس

حق السائل

من تعاليم الإسلام العادلة أمر الحق تبارك وتعالى بالزكاة، وهناك أصناف ثمانية للزكاة ويندرج السائل تحت ما جاء فى الفقير والمسكين والمسألة .

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " للسائل حق وإن جاء على فرس " [311] ويتبين لنا من هذا الحديث فى قوله " وإن جاء على فرس " الأمر بحسن الظن بالسائل الذى أهان نفسه بذل السؤال فلا يقابله بسوء الظن به واحتقاره، بل يكرمه بإظهار السرور له .

فإذا كان عنده ما يعطيه للسائل، فليعطه دون احتقاره وتقليل من كرامته واذلاله، وإذا لم يوجد ما يسأله، فليقل له قولاً معروفاً ولا يهنه، ويصرفه بحسن أدب .

ولا يترك ديننا الحنيف والسنة النبوية الشريفة للسائل الذى يسأل وهو عنده ما يكفيه، بل هو يسأل ليستكثر، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " من سأل وله ما يغنيه جاءت يوم القيامة خدوشاً أو كدوشاً فى وجهه " قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما غناه ؟ قال : " خمسون درهماً أو حسابها من الذهب " رواه الترمذى . وقال صلى الله عليه وسلم : " من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم قالوا : يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغذيه أو يعشيه " رواه أحمد

وبناء عليه فإن من يسأل وعنده ما يغنيه وإنما يستكثر أى يطلب الكثرة ولديه من الطعام ما يشبعه فالمغنى للانسان إذا حصل له أكله فى النهار أو عشاء كفته واستغنى بها .

ومن يعتد على ذلك فإن له يوم القيامة مهانة وخدوشاً أي خمش الوجه بظفر أو حديدة أو نحوهما، وكدوشاً أى الخدش .

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه " متفق عليه

وفى هذا الحديث الحث على التعفف عن المسألة والتنـــزه عنها ولو امتهن المرء نفسه فى طلب

---

311 . رواه أبو داود .

الرزق وارتكب المشقة فى ذلك، ولولا قبح المسألة فى نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ومن ذل الرد إذا لم يعط، لذلك نجد الحكمة البالغة فى ثلاثة أمور : إذا سأل السائل، فيمنح سؤاله حتى ولو كان مظهره جيداً، لان هذه الزكاة ليست لوجه السائل وإنما هى لوجه الله تبارك وتعالى وابتغاء مرضاته، والامر الثانى هو أمر السائل بأنه خير له أن يعمل فيه مشقة ويحمل حطباً على ظهره على أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه، والأمر الثالث هو تحذير للسائل إذا سأل وهو عنده ما يكفيه .

الفصل السادس

الحق فى العلم والمعرفة

لقد حث الإسلام على العلم والمعرفة والفكر ونجد شواهد ذلك من القرآن فى قوله عز وجل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْمَلائكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ قَائماً بِالْقِسْطِ ﴾ [٣١٢]، فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً وقال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَذينَ آمَنُوا منكُمْ والَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [٣١٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذينَ يَعْلَمُونَ والَّذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣١٤]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِه العُلَمَاءُ ﴾ [٣١٥]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى باللَّه شَهِيداً بَيْني وبَيْنَكُمْ ومَنْ عندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ [٣١٦]، وقال تعالى : ﴿ قَالَ الَذي عندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتيكَ به ﴾ [٣١٧]، تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل : ﴿ وقَالَ الَذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّه خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ﴾ [٣١٨]، بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى : ﴿ وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ ومَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ ﴾ [٣١٩]، وقال تعالى : ﴿ ولَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَذينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [٣٢٠]، رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله. وقيل في قوله تعالى: ﴿ يَا بَني آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وريشاً ولِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [٣٢١] يعني العلم ﴿ وريشاً ﴾ يعني اليقين ﴿ ولِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ يعني الحياء. وقال عز

---

312 . سورة آل عمران آية رقم ١٨

313 . سورة المجادلة آية رقم ١١

314 . سورة الزمر آية رقم ٩

315 . سورة فاطر آية رقم ٢٨

316 . سورة الرعد آية رقم ٤٣

317 . سورة النمل آية رقم ٤٠

318 . سورة القصص آية رقم ٨٠

319 . سورة العنكبوت آية رقم ٤٣

320 . سورة النساء آية رقم ٨٣

321 . سورة الأعراف آية رقم ٢٦

وجل: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [٣٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ [٣٢٣]، وقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [٣٢٤]، وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسان ¤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان .

ونجد أيضا فى السنة النبوية الشريفة، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده "، وقال صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء "، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

ويتضح لنا جلياً أهمية العلم فى الإسلام وكيف أنه حث عليه الإنسان، بل لنا أن نقول أن أول أمر نزل فى القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو " اقرأ "، والقراءة هي العلم والمعرفة والإطلاع، فاقرأ كل ما يفيدك ويفيد مجتمعك، فالمعرفة لم تكن قط خطيئة فى الإسلام، بل أنه حث عليها وحث حثاً دءوباً على العلم والمعرفة، ولم يقتصر الإسلام على ذلك، بل أن الإسلام أمر على العلم والمعرفة ليس فقط فى مجال الفقه الإسلامي وعلوم الشريعة كما يظن البعض بل أنه أعطى لنا أمثلة كثيرة تحثنا على العلم فى علوم ومجالات مختلفة مثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [٣٢٥] وفى ذلك حث على علم النبات، وفى علم الحيوان قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ [٣٢٦] وتكرر هذا الأمر فى سورة المؤمنون، وهناك علم الآثار فى قوله عز من قائل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [٣٢٧] ونجد هذا الأمر تكرر كثيراً تنبيهاً على أهمية هذا العلم فى عدة سور كسورة الروم، وفاطر، ومحمد، وغافر .

كما أنه لفت انتباه الإنسان إلى علم الفلك وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [٣٢٨] . وعلم الأجنة هذا العلم الحديث الذي يشرح تطور مراحل الجنين فى بطن أمه، وهذا العلم لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا فى القرن

---

322 . سورة الأعراف آية رقم ٥٢

323 . سورة الأعراف آية رقم ٧

324 . سورة العنكبوت آية رقم ٤٩

325 . سورة الحج آية رقم ٥

326 . سورة النحل آية رقم ٦٦

327 . سورة يوسف آية رقم ١٠٩

328 . سورة ق آية رقم ٦

العشرين .. ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول الإنسان يخلق خلقا كاملا فى الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية .. أي أنك إذا أخذت الحيوان المنوي واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكل تفاصيله مخلقا خلقا كاملا .. أي أن الإنسان لا يخلق على أطوار فى بطن أمه بل يخلق مرة واحدة .. وفى القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة .. وركز العلم على دور المرأة فى الحمل وأهملوا دور الرجل .. وقالوا أن بويضة المرأة هي التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر .. وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح فقط لا غير .

وظل هذا الرأي سائدا حتى القرن العشرين .. وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تماماً .. ويعطينا صورة جديدة للجنين فى بطن أمه .. ويأتي بصور تثبت ذلك .. حتى إن العملية أصبحت أمراً يقيناً لأنه يمكن تصوير الجنين وهو يتطور وينمو فى بطن أمه .

وكان للقرآن الكريم فى هذا كلمة .. ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرناً .. يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئاً عما فى بطن الأم .. وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلاً من عند الله عز وجل .

يقول الإمام الشعراوى – رحمه الله – (ماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين ؟ .. قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان من سُلالَة مِّن طين * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾[329] .

فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلا .. فهي تذكر أولاً أن خلق الإنسان من طين .. ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهى الطين .. والطين موجود فى كل مكان فى الأرض .. والعلماء أخذوا الطين وحللوه .. فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصراً .. منها الحديد والبوتاسيوم والمغنسيوم وغير ذلك من المواد .. ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون منها الطين ..

وهكذا جاءت الحقيقة الأولى .. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل .. ثم بدأ القرآن فى وصف خلق الإنسان فى بطن أمه .. فتقول الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ .

والقرار المكين هو رحم الأم .. ثم تأتي مسألة العلقة .. ونترك الحديث للبروفيسور الكندي

---

329 . سورة المؤمنون آية رقم ١٢، ١٣، ١٤

كيث ل . مور ..[٣٣٠] : أن الجنين عندما يبدأ فى النمو فى بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة .. وعرض صورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ومعها صورة للعقلة .. فظهر التشابه واضحاً بين الاثنين .. ولما قيل له : إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد .. ذهل .. وقال إن ما ذكر فى القرآن ليس وصفاً دقيقاً فقط لشكل الجنين الخارجي .. ولكنه وصف دقيق لتكوينه .. ذلك أنه فى مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة فى العروق الدقيقة فى شكل الدم المتجمد .

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، فإن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق .. فعندما عرضت الأشعة المأخوذة للجنين وهو فى مرحلة المضغة .. وصورة قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ .. وجد الشكل واحد .. ثم أظهرت صورة الأشعة التي التقطت للجنين فى مرحلة المضغة وجدت فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجي إلى التكوين الداخلي .. فقال جل جلاله : ﴿ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [٣٣١]، وعندما جيء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد .. وتم تشريحها تحت الميكروسكوب الالكتروني .. وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق وبعضها لم يتخلق .. ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة .. لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين .. لأن فيها أجزاء غير مخلقة ..

ولو قال القرآن الكريم مضغة غير مخلقة .. لكان ذلك لا يطابق حقيقة التكوين لأن فيها أجزاء مخلقة .. ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذي ينطبق على المضغة هو قوله تعالى : ﴿ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

ولقد عرض العالم الكندي كل أطوار الجنين فى بطن أمه .. والتي التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هي تنطبق تماماً على كل ما ذكر فى القرآن الكريم .. من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك ..

ولما قيل للدكتور كيث ل . مور هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التفصيلات عن أطوار الجنين ؟ .. قال مستحيل .. إن العالم كله فى ذلك الوقت لم يكن

---

330 . وهو من أشهر علماء العالم فى علم الأجنة .. ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة تورنتو بكندا .. ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء الأجنة .. وله عدة كتب مترجمة إلى ثماني لغات .. وهو الحائز على الجائزة الأولى فى العالم عن كتابه عن علم الأجنة ..

331 . سورة الحج من الآية رقم ٥

يعرف أن الجنين يخلق أطواراً .. فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة .. بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمية أطوار الجنين، بل أعطاها أرقاماً بشكل معقد غير مفهوم .. فى حين جاءت فى القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية فى الدقة .

يتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله .. وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله .. فقيل له : بعد أن قلت ما قلت .. أفلا تسلم ؟ .. فقال إنه مستعد أن يضع فى الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علمت .

ولقد قرىء معنى الآيات التي جاءت فى القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة فى العالم .. فلم يجرؤ منهم أن يدعى أن هناك تصادماً بين ما جاء فى القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم.

ولكن أحدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثي للإنسان يوجد فى نطفة الرجل .. ويتحدد فيها تفاصيل الإنسان الذي سيولد أذكر أم أنثى .. ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخره .. أي أن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة فى شفرة خاصة فى نطفة الرجل .. فلما قرئت عليه الآية الكريمة :﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [٣٣٢]، قال لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله .

ولقد ذكرت بالتفصيل علم الأجنة لأنه علم من العلوم الحديثة والتي ثبت بالبرهان القاطع كما ذكرت أنه لا يوجد خلاف نهائي بين العلم والإسلام حتى ولو كان حديثاً لم يعرفه العرب فى زمن ما.

ونود الإشارة إلى أن العلم جزء لا يتجزأ من إيمان الإنسان المسلم، لأن الإنسان العالم، هو مؤمن بالقلب والعقل معاً، وهذا هو مضمون دين الإسلام، فالإسلام يخاطب العقل والقلب معاً.

لذلك قد أمرنا الله عز وجل بالعلم فهو قبل أن يكون حقاً يكفله الإسلام فهو واجب على كل مسلم ومسلمة لابد وأن يقوم كل فرد مسلم به، وحقه ان يجد ما يعينه على العلم والتعلم وهذا دور الدولة الإسلامية فى توفير الوسائل التي تسهل ذلك .

التعليم في الإسلام

لكل نظام تعليمي وتربوي رؤية يحددها نظرة القائمين عليه حيث حقيقة الإنسان وأبعاده الوجودية، وأيضاً وفقاً للأهداف التي يبتغون تحقيقها من وراء التعليم والتربية، وكذلك انطلاقاً

---

[332] . سورة عبس آية رقم ١٧، ١٨، ١٩

مما لديهم من اعتقاد في كيفيّة تطوّر الإنسان وحركته نحو تعمير الكون . والحقيقة أن هذه الرؤى والنظرات هي التي تؤلّف أسس وأصول التعليم والتربية في كل نظام وإن كانت لا تحظى بالاهتمام عن وعي أو لا يُصَرَّح بها .

فالتعليم هو الميكرفون الأول لتوصيل فلسفة وأفكار النظام إلى الجيل النشء، ومن الطبيعي أن نظام التربية والتعليم الإسلامي مبني على رؤية ونظرة خاصة للإنسان وهدفه فى حياته .

لذلك ينبغي قبل تسليط الضوء على نظام التربية والتعليم الإسلامي ــ تركيز الاهتمام على هذه الرؤية، ثم يتم في ضوئها بيان أسس نظام التعليم فى الإسلام .

الرؤية الإسلامية للتعليم :

١ ــ حقيقة الإنسان : الإنسان في الرؤية الإسلامية ليس مجرد كيان عضوي محسوس، بل ينطوي على مكوّنات مما وراء الطبيعة تبقى بعد فناء البدن ﴿ ونَفَخْتُ فيه من رُّوحي ﴾[٣٣٣]، ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَذي وكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[٣٣٤]، وله بعد الموت حياة خالدة يعيش فيها السعادة الابدية أو الشقاء الأبدي . والحقيقة هي ان إنسانية الإنسان إنَّما تكون بروحه، وما بدنه الا بمثابة آلة تُتخذ للعمل، أو كمركب يُتخذ للسير والحركة . ولابد طبعاً من الاهتمام بسلامة وقوّة الآلة والمركب من أجل العمل والسير .

٢ ــ مكانة الإنسان في الكون : يتمتّع الإنسان من بين موجودات هذا الكون بمواهب إلهية وقابليات معيّنة تميّزه عن سائر المخلوقات، كالدقّة التي تتصف بها أعضاؤه الظاهرية والداخلية خاصة الدماغ والجهاز العصبي، وما لديه من قدرات روحية خاصّة لا مثيل لها في سائر الكائنات الحيّة . وهذه هي الخصائص التي تتيح له التصرّف في جميع ظواهر الطبيعة وتسخيرها في سبيل رقيّه وتعميره للأرض المستخلف فيها، فمنح هذه المزايا للإنسان يُعد بمثابة نوع من التكريم التكويني الإلهي له . وهو ما أشير إليه في القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٣٣٥] .

٣ــ لقد خُلق الإنسان بهذه المؤهّلات الخاصّة من أجل أن يسير فى مساره الدنيوي بإرادة حرّة واختيار واع، ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾، فالله عز وجل خلق الإنسان بارادة حرة

---

333 . الحجر : ٢٩ .

334 . السجدة : ١١ .

335 . الإسراء : ٧٠ .

وواعية وهذه الارادة الحرة تجعله مسئولا امام الله عما فعله فى حياته وفيم أفنا عمره وماله فالدنيا مقدّمة الآخرة، وحسب تعبير القرآن الكريم فانّ الدنيا «دار ابتلاء» ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[336] لتمييز الصالحين من المفسدين ولينال كل إنسان في عالم الآخرة ما يستحقّه .

٤ ــ ولا شك من تأثير المعَلّم والمربّي فى التربية والتعليم حيث يستطيع الإنسان الاستعانة بالآخرين لكسب العلوم والرؤى ومعرفة القيم، وتصحيح وتقويم أخطائه وانحرافاته . ومن هنا يتضح مدى أهمية المعَلّم والمربّي ؛ لأنه هو الذي يستطيع من خلال تعليم الأشياء المفيدة والمعارف القيّمة، توسيع مساحة المعرفة والتعقّل لدى المتعلّم ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[337] . ويمكنه أيضاً مساعدة المتعلّم على الاختيار الصحيح والتغلّب على أهوائه النفسية وكسب الملكات الفاضلة كالايثار والتضحية، وبكلمة واحدة، يساعده على السير في السبيل الذي أراده له الله، وذلك عن طريق تعليمه القيم السامية واثبات افضليّتها على الميول والاهواء الدنيئة، وتعريفه بسبل التحكم بالغرائز وتهذيبها . وهكذا فهو يغدو وسيلة قيّمة لتحقيق الغاية الالهية من خلق الإنسان، مع ما يتضمّنه ذلك من السير بخطوات كبرى على طريق تكامله وتعميره للأرض وعبادته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ مُعَلِّم الخير يستغفر له دواب الأرض وحيتان البحر وكل ذي روح في الهواء وجميع أهل السماء والأرض . وإنّ العالم والمتعلّم في الأجر سواء. وقال صلى الله عليه وسلم : العالم والمتعلّم شريكان في الأجر: للعالم أجران، وللمتعلّم أجر، ولا خير في سوى ذلك [338] .

وهكذا وضحنا نظرة عامة للتعليم فى الإسلام من خلال رؤية الإسلام للانسان والفكر الإسلامي لمسار الإنسان فى حياته ودنياه، لقد اهتم الإسلام بتوازن الإنسان وتهذيب نفسه إلى الخير والصلاح .

ومن أقوى المؤثرات التى تؤثر فى كيان الإنسان ومساره هو التعليم وما يتلقاه على أيدي معلميه، وربما نصل إلى نتيجة ان من اسباب الضياع النفسي الذي يواجهه غالبية شباب اليوم هو فقدان القدوة فى التعليم وغياب المربي فى النظام التربوي والتعليمي .

ونوضح فى ايجاز أسس النظام التعليمي فى الإسلام :

---

336 . سورة الأنبياء : ٣٥ .

337 . سورة الكهف ٦٦ .

338 . راجع: بحار الأنوار، العوالم، أصول الكافي .

أسس النظام التعليمي فى الإسلام :

١ــ التقييم الصحيح للمتطلّبات المادية والمعنوية : ينبغي أن يكون مضمون التربية والتعليم وسلوك المربي شاملاً بحيث يصبح ناظراً ومدركاً لأصالة البُعد الروحي والمعنوي للإنسان، وينظر دوماً إلى المتطلبات المادية كأداة ووسيلة (وليس كهدف) ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٣٣٩] . وفي الوقت نفسه ينبغي اجتناب الإفراط في النصائح والارشادات التي تدعو إلى الزهد وتؤدّي إلى اضطرابات بدنية أو تؤدّي حتّى إلى اضطرابات نفسية، وينبغي عدم تجاهل الالتزام بالتعاليم الصحيّة والتربية البدنية والترفيه المعقول .

٢ــ تحفيز مشاعر الكرامة والاعتزاز بالنفس : نظراً إلى المكانة التي خُصَّ بها الإنسان بين المخلوقات، والنعم الإلهية التي منَّ الله بها عليه سواء البدنية منها والنفسية، أم النعم الخارجية والاجتماعية ــ وما حباه من سيطرة على الطبيعة وهيمنة عليها، لابد عند تعليمه من تحفيز مشاعر الكرامة والعزّة لديه، ولابدّ من تعليمه بأنَّ اقتراف الاعمال الرذيلة بمثابة تدنيس لجوهر إنسانيّته، وأنّ الانقياد لأهواء النفس يعني استعباد وإذلال عقله وروحه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[٣٤٠] . وعلى صعيد آخر، نظراً إلى ان اعضاء بدنه وقواه النفسية كلّها أمانة إلهية عنده ــ كما هو حال النعم الخارجية ــ فلابد ان يكون التعامل معها واستخدامها بشكل يرضي صاحبها الحقيقي وهو الله تعالى، لكي لا تكون هناك خيانة في هذه الأمانة . وكذلك يتعيّن على المعلّم والمربّي ان ينظر إلى المتعلّمين كأمانة إلهية اودعت لديه، ويجب عليه ان يعلّمهم أسمى العلوم وبأفضل الأساليب ويربّيهم أحسن ما تكون التربية «كلّكم راع وكلّكم مسئول عن رعيّته».

وفي رسالة الحقوق لزين العابدين(رضي الله عنه) : «وأمّا حقّ رعيّتك بالعلم فان تعلم أنّ الله عز وجل إنَّما جعلك قيّما لهم فيما آتاك من العلم وفتح لك من خزائنه، فان أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله، وان أنت منعت الناس علمك وخرّقت بهم عند طلبهم العلم منك، كان حقّاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه، ويسقط من القلوب محلّك »..

---

339 . سورة القصص ٦٠ .

340 . سورة الشمس ٩، ١٠ .

٣ــ محاربة الغفلة : بما أن الإنسان يقف على الدوام عند مفترق طريقين يقوده أحدهما نحو غاية الرقي بلا نهاية، وينتهي به الآخر نحو غاية الانحطاط بلا نهاية، فلابد أن يتركّز التعليم على تبيين خطورة موقفه لكي لا يغتر بالتكريم الإلهي الابتدائي وبالنعم الدنيوية ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾[٣٤١] .

وعليه أن لا يقضي حياته بالغفلة والبطالة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٣٤٢] .

٤ــ إحياء ذكر الله : بما أن الهدف من خلق الإنسان هو الوصول إلى القرب الإلهي، فمن الواجب إحياء ذكر الله في قلب المتعلّم لكي تتوفر له السكينة النفسية ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٣٤٣]، ولكي يجعله كالبوصلة لتعيين وتصحيح مساره، وأن يضفي على أعماله قيمة أيضاً من خلال إعطائها دافعاً إلهياً﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾[٣٤٤] .

٥ــ ترجيح الأهم : نظراً إلى أهمية دور المعَلِّم والمربّي في تنشئة وإعداد الناشئة من المتعلّمين وانضاج استعداداتهم، يجب أن يضع المعَلّمون والمربّون وخاصّة المسؤولون عند وضع الخطط والمناهج، نصب أعينهم مسؤوليتهم الخطيرة هذه، مع الاهتمام الدقيق بمصلحة كل واحد من المتعلّمين، وكذلك مصالح المجتمع الإسلامي بل وحتى مصالح المجتمع البشري، واجتناب وضع أو تطبيق الخطط والمناهج أو المواد التي تؤدّي إلى إهدار الوقت وتضييع العمر، أو إذا لم تكن ذات قيمة مهمّة بالمقارنة مع مصالح أسمى . وأن يركّزوا من بين الدروس على ما له تأثير أكبر في السعادة الأبدية (كالأخلاق الكريمة والعلوم النافعة للبشرية) وتدريسها بشكل يجعلها محبوبة ومرغوبة أكثر في النفس، وأن يحرصوا على أن يكونوا هم أنفسهم نماذج صالحة يقتدي بها المتعلّمون .

٦ــ العلوم الطبيعية والاجتماعية : نظراً إلى ضرورة الحياة الاجتماعية ومستلزماتها ومتطلّباتها، وكذلك ضرورة التمتّع المادّي لتوفير الاحتياجات الفردية والاجتماعية والحفاظ على عزّة وسيادة المجتمع الإسلامي، يتّضح لزوم إدخال العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية ضمن

---

341 . سورة فاطر ٥ .

342 . سورة المنافقون ٩ .

343 . سورة الرعد ٢٨ .

344 . سورة الحشر ٨ .

المناهج الدراسية، إذن يتعيّن على من يضطلعون بمهمة التخطيط والبرمجة أن يدرجوا المناهج العامّة والتخصصية بدقّة كافية في المناهج الدراسية مع الأخذ بنظر الاعتبار الشروط السنّية والذهنية للمتعلمين وحاجات وإمكانيّات المجتمع . تجدر الإشارة إلى أنه يجب في كل الحالات أن ينصبَّ التركيز والاهتمام على الغاية الأساسية وهي التقرّب إلى الله تعالى . ولا ينبغي تفويت أية فرصة في سبيل إحياء الدوافع الإلهية والقيم السامية وكذلك محاربة الغفلة وهوى النفس . وبعبارة أخرى يجب جعل كل الاهداف مقدّمة للهدف النهائي .

٧ــ تقوية الشعور بالمسؤولية إزاء المصالح الاجتماعية : أن وجود أنواع المسؤوليات الاجتماعية يتطلب توجيه جهاز التعليم والتربية نحو الاهتمام بالمجتمع وحب الآخرين . وأن يتم التركيز سواء عند اعداد مضامين الدروس، أو في تعامل المعَلِّمين والمربّين مع المتعلّمين، على تقوية خصال التعاون والتضامن والإيثار والتضحية ونكران الذات وحب الخير للآخرين وحب العدالة، إلى جانب مكافحة صفات الأنانية إزاء المصالح الاجتماعية مكافحة شديدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم "، وأن يجري التأكيد على وجه الخصوص على غرس روح البسالة ومحاربة الظلم ومجاهدة ومقارعة الجبابرة والمفسدين وحماية المظلومين والمحرومين لدى المتعلمين لأجل تنشئة عناصر صالحة وفاعلة لبناء المجتمع المنشود، وقادرة على الاضطلاع بدورها في تحقيق الهدف الإلهي .

الفصل السابع

الحق فى العلاج

إن علاقة الإسلام بالطب هي عنصر جزئي ينطلق من حقيقة كبرى تحكم نظرة الإسلام للإنسان، فالإنسان فى القرآن الكريم هو خليفة الله فى الأرض، وهو مخلوق الله المكرم الذي أمر الملائكة فسجدت له وسخر له الأرض ليبني فيها ويعمر .

هذه القيمة العظمى للإنسان هي التي فرضت إحاطة مخلوق الله المكرم بسياج من الضمانات التي قررتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لدرجة أن العدوان على الإنسان هو اعتداء على المجتمع بأسره، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [٣٤٥]، وكذلك يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم : " المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه " .

وإزاء هذه القيمة العظمى والمسؤولية الكبرى للإنسان فإن الله تعالى قد سلح الإنسان بالمعرفة : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ [٣٤٦] .

وهكذا تتضح الصورة : إنسان كرمه الله، ثم حمل مسؤولية كبرى وهى حمل أمانة الله فى الأرض ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[٣٤٧]، ثم أعطاه الله " العلم والمعرفة " .

وعلم الطب هو أبرز وسائل المعرفة لحماية ذلك المخلوق الذي كرمه الله لكي يؤدي رسالته على الأرض فالطب ترجمة لحق البدن على صاحبه كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا " .

والعلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذي يعطي مجالا للعلم، وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام، يريده علما فى ظل الإيمان وفى خدمة مثله العليا وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ ورَبُّكَ

---

345 . سورة المائدة آية رقم٣٢ .

346 . سورة الرحمن آية رقم ١ : ٤

347 . سورة الأحزاب آية رقم ٧٢ .

الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [348]، وهكذا طلب الله من عباده القراءة المفيدة، وهذه القراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون باسم الله، وبهذا تكون موجهة للخير .

إن الإسلام يحترم العمل المهني من أجل الكسب الحلال، فالرسول صلي الله عليه وسلم يقول : " أن أطيب ما أكل الرجل من كسب يده " والطب مهنة للكسب الحلال، امتدحها رسول الله صلي الله عليه وسلم : " نعم العبد الحجام " وورد أنه احتجم وأعطى الحجام أجره .

والمسلم فى عمله الحلال له ثواب العبادة، فرسول الله صلي الله عليه وسلم أعاد شابا عن الجهاد لكي يعمل على توفير الرزق لوالديه المسنين وقال له : " ففيهما فجاهد " ولكي يكون العمل فى منزلة العبادة لابد من أن تتوفر فى ممارسته نية صادقة بأنه موجه إلى رضا الله .

لذلك فإن الإسلام يدعو الطبيب المسلم لأن ينطلق فى ممارسة مهنة الطب من قواعد ثلاثة :

١. دفع الضرر عن المجتمع المسلم بتوفير مقومات الصحة للمجتمع، والرسول صلي الله عليه وسلم يقول : " إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " والطبيب فى مجال تخصصه مطالب بأن يقدم علمه وخبرته لصالح المجتمع .
٢. أداء واجب الأخوة فى الله نحو أخيه المسلم المريض ففي الحديث الجامع عن رسول الله صلي الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة، ومن سلك طريق يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة " وبذلك يكون هدف الطبيب فى تخفيف آلام المريض أسمى من الرغبة فى الأجر والجزاء الدنيوي وأرفع من إشباع النفس بلذة الشعور بالمهارة فى المهنة .
٣. الرحمة الإنسانية التي تتسع لكل البشر مسلمين وغير مسلمين بل تتسع لكل كائن حي كما يقول رسول الله صلي الله عليه وسلم : " لن تؤمنوا حتى تراحموا "، قالوا : كلنا رحيم يا رسول الله، فقال صلي الله عليه وسلم : " ليست الرحمة أن يرحم الرجل قومه إنما يرحم الناس جميعا " .

---

348 . سورة العلق آية رقم ١ : ٥ .

نظرة الإسلام للمرض :

يعترف الإسلام بالمرض كحالة طبيعية تصيب أعضاء معينة من الجسم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص حيث أصيب بمرض القلب : " انك رجل مفؤود فأت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب " .

إذن ليس المرض ناتجا عن الشياطين والنجوم والأرواح الشريرة، لذلك منع الإسلام كل الممارسات المبنية على هذه المعتقدات الخاطئة مثل التطير والتمائم والعرافة وغيرها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من علق تميمة فقد أشرك "، " من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد "، " لا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة "، " إن الرقي والتمائم والتولة شرك " .

صحيح أن الإسلام لم يوضح العوامل والأسباب المرضية بالصورة التي نفهمها الآن، لأن الحضارة الإسلامية فى هذا العصر لم تكن لتستوعب هذه المعلومات، ومع ذلك فقد أعطى إرشادات محددة تهدف لسلامة المجتمع المسلم، مثل ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى العدوى وصحة البيئة والتغذية والنظافة الشخصية . وهذه لا تختلف عما يقوله عالم فى العصر الحديث يعرف مسببات الأمراض ووسائل مكافحتها، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الطاعون ما هو الا أسلوب الحجر الصحي الحديث للأمراض الانتقالية ولكن دون أن يذكر العامل المرضي (الميكروب) وطريق انتقاله بصراحة، عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا منها". المسلم مطالب بحفظ صحته والمجتمع مطالب بوقاية نفسه من الأمراض بل توفير الصحة الايجابية بمفهومها الحديث، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [٣٤٩]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لو لم يكن لابن آدم الا إسلامه والصحة لكفاه".

وليس ذلك بغريب فالمؤمن القوي الصالح أقدر على أداء الرسالة التي خلقها الله الإنسان من أجلها ليعيش على الأرض ويؤدي الأمانة التي حملها .

إن القرآن يعيب على أولئك الكافرين الذين يريدون الحياة _ أي حياة _ لمجرد الحياة : ﴿ولَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ومِنَ الَذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ومَا هُوَ

---

[349] . (القصص ٢٦) .

بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [350]، إن الإسلام لا يقبل أن تكون أمة المسلمين غثاء كغثاء السيل تعيش هامش الحياة فى عجز جسماني وفكري .

بل إن هناك جانب يتميز به الإسلام فى موقفه من المرض وهو وأن بدا أمر يتعلق بالسلوك إلا انه فى نهاية الأمر نوع من العلاج النفسي لنا أن نصفه فى جانب العلم بأكثر مما يصنف فى جانب الآداب والأخلاقيات . فللمريض حق على الصحيح وهو حق العيادة، كما أنه له حقا على الطبيب هو حق الطبابة . وهذه الحقوق تستمد من التأكيد الشديد الذي ركزت عليه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى عيادة المريض إلى ما يشبه الوجوب وأنها من حقوق المسلم على المسلم إنها ليست مجرد تخفيف عنه وصلة له ولكنها قربى إلى الله، فضلا عن أنها حق من حقوق الإنسان الذي يصونه الإسلام، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسي: "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب: كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟"، وهكذا فالمريض قريب من الله كما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "عودوا المرضى ومروهم فليدعوا لكم فإن دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور"، "إذا دخلت على مريض فمره يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة " .

بهذه الفلسفة يكون المريض قادرا على التماسك والتحمل ولا يكون المرض البدني سببا فى تولد المرض النفسي أو الاضطرابات العضوية النفسية . بل ان صلابة النفس كثيرا ما تساعد فى شفاء المرض الأصلي .

ويتفرع من تلك الفلسفة أيضاً أن الأزمات الصحية مهما اشتدت لا تقود المسلم إلى التفكير فى التخلص من حياته بل لا يجوز له أن يتمنى الموت، عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني ما علمت الوفاة خيرا لي " .

نظرة الإسلام للوقاية والعلاج :

دعا الإسلام إلى تطبيق أسس الرعاية الصحية الثلاثة وهي الوقاية والعلاج والتأهيل .

وحيث أن الطب الوقائي يهدف إلى تدعيم الصحة الايجابية، لذلك أولاه الإسلام أهمية خاصة .

---

350 . (البقرة ٩٦) .

فالمجتمع المسلم الصحيح أقدر على حمل الأمانة وأداء رسالة الله فى الأرض . وعلى ذلك نجد أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصحة الوقائية تتميز بالتفصيل وتنتهج أسلوبا أقرب إلى الإلزام .

ففي مجال البيئة نجد الإسلام قد وضع نموذجا رائعا لارتباط كل فرد مسلم بأمة الإسلام ويتمثل ذلك فى مسؤولية كل فرد عن سلامة المجتمع والتزام كل مؤمن بسلامة أخيه تماما كالتزامه لنفسه فالقرآن الكريم وضع القواعد الأساسية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [351]، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "، " المسلم للمسلم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " .

وانطلاقا من ذلك فإن المحافظة على الصحة الشخصية لا تكفي بل لابد من الحرص على صحة البيئة ويتمثل ذلك فى الأحاديث الشريفة : " إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم فنظفوا أفنائكم وساحاتكم "، " انظر ما يؤذي الناس فاعزله "، " لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم " ـــ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى مجال الوقاية من الأمراض المعدية وضع الرسول صلى الله عليه وسلم قيودا على حركة المريض : " لا يحل الممرض على المصح وليحل المصح حيث يشاء " . بل إن المسلم مطالب بالالتزام بقواعد الحجر الصحي فى حالة الوباء ولو أدى ذلك إلى التضحية بنفسه فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " الطاعون شهادة لكل مسلم " .

وفى مجال الصحة الشخصية فإن طهارة البدن شرط لدخول الإسلام والنظافة شرط لأداء أهم أركانه وهي الصلاة. ونظرا لأهمية صحة الإنسان وانعكاساتها على أجهزة الجسم المختلفة جعل العناية بها تكاد تكون ملزمة كما فى قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة " .

وكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تناولت صحة الغذاء والأواني والطعام .

وفى مجال السلامة والوقاية من الحوادث : وضع الإسلام القاعدة الأساسية لهذا العلم : فلكل حادثة سبب، ولتجنب الحوادث يجب على المسلم إزالة أسبابها وقاية لنفسه . يقول الحق تبارك

---

[351] . سورة الحجرات ١٠ .

وتعالى : ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ﴾[352]، ﴿ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾[353]، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تتركوا النار فى بيوتكم حين تنامون"، "إرشادك الرجل فى الضلال صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة".

وفى الطب العلاجي أمر الإسلام بالتداوي أمرا صريحا وحازما، فالمسلم ليس قدريا يهمل العلاج ويترك نفسه للأقدار بل لابد من العلاج الذي جعله الله سببا للشفاء .. وعندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن دواء يتداوى به هل يرد من قدر الله شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هي من قدر الله "، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم المعروف عن العلاج : " يا عباد الله تداووا، إن الله عز وجل لم يترل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله "، " فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله " .

هذه التعليمات الواضحة غيرت مفاهيم البشرية نحو المرض والعلاج ووضعت حدا للخرافات الشائعة عن أسباب الأمراض ووسائل علاجها . ووضعت الناس على الطريق الصحيح ليبحثوا فى الداء والدواء ليعلم من لم يكن يعلم .

واستكمالا للدقة فى تحديد المسار الصحيح للطب العلاجي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى احترام التخصص فى فروع الطب فينادي الحارث بن كلدة للمريض المفؤود . وعندما يواجه طبيبين متقدمين لعلاج مريض يسألهما :

" أيكما أطب بهذا " حتى يتلقى المريض أفضل رعاية متخصصة .

أما التأهيل فيهدف إلى منع العجز بسبب المرض، والإسلام يعود المسلم ألا يستسلم للعجز بل يصلي ولو بالإيماء، الكل مطالب بالعمل حسب طاقته .

والإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش عالة على غيره، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اليد العليا خير من اليد السفلى " حتى فى مجال التأهيل بالجراحة التعويضية أباح الإسلام استخدام الذهب فى العلاج التعويضي رغم أنه محرم على الرجال، أما الممارسات التي يقصد بها تشويه جسم الإنسان أو تغيير صورته الجميلة مثل الوشم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حرمها بقوله : " لعن الله الواشمات "، وقديما كانوا يكسرون جزءا من الأسنان إذا كان بارزا لأغراض التجميل وبذلك يزيلون طبقة المينا الواقية على سطح الأسنان وهذا فيه ضرر وهنا

---

352 . (البقرة ١٩٥) .

353 . (النساء ٢٩) .

يتغلب دفع الضرر على التجميل فيحرمها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "لعن الله الواشرات والمستشورات " أما الجراحة بقصد التجميل إذا لم يكن فيها ضرر أو احتمال واضح للضرر فإنها تدخل فى القاعدة العامة : " ان الله جميل يحب الجمال "، والمرأة المسلمة مطالبة بأن تبدو بأجمل صورة فى عيني زوجها .

الإسلام وآداب ممارسة مهنة الطب :

١ ــ لا يجوز فصل آداب المهنة عن الأخلاقيات العامة التي يجب أن يتصف بها كل مسلم فى سلوكه، فالإسلام يهدف إلى تكوين الذات الإسلامية منذ الطفولة بحيث يمتزج الخلق الإسلامي مع تكوين الفرد وطباعه . ومن واجب الأسرة والمدرسة والدولة أن يوفروا البيئة الصالحة التي لا يشيع فيها المنكر ويكون المثل الأعلى فيها قول الله تعالى : ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٥٤]، وبذلك ينشأ الجيل منسجما مع فطرته النقية بسهولة بلا تناقضات ويجد طريق الخير أمامه سهلا وبذلك يتحقق قول الله تعالى : ﴿ والَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ومَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[٣٥٥] .

والطبيب المسلم الذي يحمل أمانة الإسلام أولا، وأمانة المحافظة على صحة المسلمين ودفع الضرر عنهم ثانيا، أولى الناس بأن تكون تربيته إسلامية وسلوكه محمديا . وعندما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه قالت : " كانت خلقه القرآن " . وبذلك يكون الالتزام بخلق الإسلام جزءا من طبع الطبيب يمارسه بلا تكلف فى جهره وعلانيته ونذكر قصة المعلم الذي قال لتلميذه الصغير : اذبح الطائر فى مكان لا يراك فيه أحد، فغاب الغلام ثم عاد ومعه الطائر حيا وقال لأستاذه : لم أجد المكان الذي أكون فيه وحيدا تماما لأني كلما اختبأت فى مكان شعرت أن الله معي .

والطبيب المسلم الذي يشعر أن تعامله مع الله وأن عليه رقابة دائمة : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [٣٥٦] أن يتقى الله فى التعامل مع خلق الله . إذا تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا " فإن نظرته إلى الكائنات الحية كلها ستكون نظرة رحمة فأولى به أن يكون

---

354 . (القلم ٤) .

355 . (الطور ١٢) .

356 . (سورة ق ١٧، ١٨) .

رحيما مع الإنسان ــ أفضل مخلوقات الله ــ الذي كرمه الله وجعله خليفته فى الأرض . لقد جرت العادة منذ عهد ابقراط أن يبدأ الطبيب حياته المهنية بترديد قسم يلتزم بآدابه فى ممارسة الطب . ان قضية السلوك المهني لا تحل بقسم، ولا تستوفى بدراسة مقرر علمي فى آداب ممارسة الطب، ولا تحكمها قواعد قانونية تقررها نقابة طبية أو دستور وضعي، ان الرعاية بالمريض تحمل التزامات أخلاقية .

والطبيب فى ممارسته اليومية ستواجهه كثير من المواقف تستلزم استفتاء ضمير . وهنا ستتأثر قراراته بمدى التزامه تجاه ربه . وهنا ينبعث حكمه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس " . ان مفهوم الواجب فى الإسلام هو أن تعمل لا بقصد رضاء الناس بل بقصد وجه الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [٣٥٧] .

٢ ــ هذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها كل الفضائل والأخلاقيات التي أوصى بها القرآن والرسول الكريم ومنها :

(أ) الصبر : ﴿ واصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾ [٣٥٨] .

(ب) الإحسان فى العمل : ﴿ وأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾[٣٥٩] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ ﴾ [٣٦٠]

(ج) السمت الصالح : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة " .

(د) الكلام الطيب : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الكلمة الطيبة صدقة " .

(هـ) الابتسام : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة " .

(و) الحياء : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ان لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء ".

(ز) الرحمة : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء"

(ح) الرفق : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لمسلم ان يروع مسلما " .

---

357 . (الأنعام ١٦٢) .

358 . (هود ١١٥) .

359 . (البقرة ١٩٥) .

360 . (النحل ٩٥) .

(ط) الصحبة الطيبة : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تصاحب الا مؤمنا، ولا يأكل طعامك الا تقي " .

٣ ــ ولكن هناك بعض جوانب أخلاقية معينة تمس عمل الطبيب أكثر من غيره ويلزمه ان يتذكر دائما حكم الإسلام فيها، ومن ذلك جوانب علاقته بالمريض كما يلي :

* غض البصر : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[361] . فلا يجوز ان يكون الترخيص بالاطلاع على عورات الناس عند الضرورة مبررا للتخلي عن الحياء الواجب على كل مسلم . وعلى الطبيب الا يطلع الا على ما هو ضروري . وان شعور المريض بحياء الطبيب فى هذا الموقف يعطيه ثقة أكبر فى طبيبه .

* لا يجوز إخبار المريض بخطورة مرضه ولو كان ميئوسا من شفائه . ان حالة المريض من الحالات القليلة التي رخص فيها الإسلام بإخفاء الحقيقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخلتم على المريض فنفسوا له فى أجله، فان ذلك لا يرد شيئا ويطيب نفسه " .

* وتطبيقا للقاعدة الشرعية : " لا ضرر ولا ضرار " فان الطبيب عليه ان يخطر المريض المصاب بمرض مُعدي، ويدعوه إلي الاعتزال لمنع الضرر عن المسلمين، وهناك فرق بين ان يفقد المريض الأمل فى الشفاء وان يعرف انه مصدر ضرر للآخرين فيبتعد عنهم . إذا تعارضت مصلحة المجتمع مع مشاعر الفرد تفضل مصلحة المجتمع . فعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مريضا بالجذام قادم إليه ليبايعه مع المسلمين أرسل إليه ليرجع قائلا : " ارجع فقد بايعناك ".

* والطبيب فى مهنته معرض للاطلاع على أسرار المريض فيجب أن يتخلق بخلق الإسلام فى هذا المجال، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة " .

* وإذا استشاره المريض فليلتزم بالأمانة فى إبداء المشورة وليحافظ على ما استشير فيه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المستشار مؤتمن " .

* فحص الطبيب للمريضة يجب ان تحضره ممرضة أو أحد محارم المريضة تطبيقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يخلون رجل بامرأة الا ذو محرم " .

* وهناك جانب آخر من سلوك الطبيب يمكن ان نسميه " إسلاميات ممارسة المهنة " ومنها ما يلي :

---

361 . (النور ٣٠) .

١ ــ بدء الفحص أو العلاج بذكر اسم الله فان ذلك له عدة اعتبارات :

ــ ادعى للتوفيق فى العمل يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر " .

ــ استشعار لدوره كسبب نفاذ إرادة الله فى العلاج وهذا هو موقف العبودية لله .

ــ توجيه عمله لله حتى يثاب عليه .

ــ منح المريض دفعة روحية وهو فى موقف حساس .

٢ ــ قد يشهد وفاة المريض وبصفته مسلما قبل أن يكون طبيبا فعليه أن يلقنه الشهادتين كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لقنوا موتاكم لا اله الا الله " .

٣ ــ تجنب ما حرم الله فى العلاج تنفيذا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليهم " . وفى الطب الحديث لكل علاج محرم بديله الحلال .

٤ ــ تجنب الممارسات الغير أخلاقية والتي تتنافى مع الآداب الإسلامية كالإجهاض .

٥ ــ الا يقدم على ممارسة الا إذا كان مطمئنا إلى كفايته لتنفيذها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا حكيم الا ذو تجربة "، ويحترم التخصص المهني تنفيذا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من تطيب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن " .

٦ ــ ان يحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر فان مهنته تتعداه إلى غيره وعلمه من النوع التطبيقي .

٧ ــ ان يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الإسلام فيتجنب الغيبة والتجريح وليحترم الكبير يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا "، ولا يتعالى على الصغير يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا "، ويقدم النصح لمن يحتاجه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة "، وان يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من دل على خير فله مثل اجر فاعله "، وأيضا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا " .

٨ ــ ان يفيد بعلمه كل مريض يمكنه مساعدته، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع "، " من كتم علمه عن أهله ألجم يوم القيامة لجاما من نار " .

٩ ــ ان يذيع ما يكتشفه من جديد فى العلاج تعميما للفائدة ولا يحتكر طريقة فى العلاج

بقصد الكسب منها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يحتكر الا خاطئ " .

١٠ ــ وان يراعى حرمة الميت كما يراعى حرمة الحي، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب الكعبة : " والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك "، " كسر عظم الميت ككسر عظم الحي فى الإثم " .

ان آفاق التعاليم الإسلامية تتسع لكل ممارسة طبية يقصد بها الخير للإنسان، وحتى فى المواضع التي لم يرد فيها نص صريح فان التشبع بروح الإسلام يعطي الطبيب المسلم إمكانية التصرف طبقا للمصالح المرسلة التي يراها نافعة للبشرية .

وهذا يزيد من حاجة المجتمع المسلم لان يكون الأطباء اقرب إلى الله وأكثر التزاما بما انزل الله وجاء به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثامن

الحق فى سلامة الجسد

منذ القدم وفي كافة العصور كان حق الإنسان في السلامة الجسدية وعدم التعرض للتعذيب محل انتهاك دائم، ففي الحضارات القديمة كان الرق شائعاً بل كان يعد من الدعائم الاقتصادية المهمة في المجتمع، والرقيق لا يتمتع بأي حقوق ويعتدى عليه بالضرب والإيذاء ويكلف بالقيام بأعمال شاقة، كما أن كثرة الحروب والغزوات أدتا إلى سبي أعداد كبيرة من بني البشر الذين كان ينكل بهم ويعذبون بطرق وحشية كانت من أكثر مظاهر انتهاك الحق في السلامة الجسدية شيوعاً .

كما أن المتهم كان ينتزع منه اعترافه بالتعذيب وسائر طرق المعاملة اللاإنسانية، ولم تكن توجد أي ضمانات للإنسان في عدم الاعتداء على جسده وعدم تعرضه للتعذيب .

بمجيء الإسلام نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن التعذيب بقوله : " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا "، مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام . قد أقيموا في الشمس . فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حبسوا في الجزية . فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا " [٣٦٢] .

فالتعذيب والمعاملة القاسية أو اللاإنسانية ممنوع في الإسلام، فهذه الأفعال تتنافى مع الكرامة الإنسانية التي كرست لها الشريعة الإسلامية اهتماماً كبيراً، فمن مظاهر الكرامة أن يعيش الإنسان في مجتمعه موفور الكرامة مصون المترلة، ويجب عدم إيذائه بالقول والخطاب واليد والمعاملة، بل إن الإسلام أوجب الجهاد في نصرة المستضعفين المعتدى على حريتهم وحقوقهم من أجل رفع الظلم وإنصافهم، ويؤكد فقهاء الشريعة عدم جواز تعذيب المتهم أو إساءة معاملته، فالشارع نهى عن التعذيب والمثلة ولو كانت في الكلب العقور .

السلامة فى القرآن الكريم :

وردت في المصحف الشريف العديد من الآيات الكريمات التي تحض على السلامة من الأخطار المختلفة التي تتعلق بهذا الموضوع لكي نتعلم جميعا من آيات القرآن اتخاذ احتياطات السلامة

---

[362] . الراوي: عروة بن الزبير المحدث: مسلم .

المناسبة ليس في محيط العمل فقط ولكن في حياتنا ككل .

احتياطات السلامة في العمل : ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ ﴾[٣٦٣]، فهذه الآية وان نزلت في الإنفاق في سبيل الله فهي تشير كما يقول المفسرون إلى النهي عما فيه هلاك الإنسان .

﴿ واللَّهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ ﴾[٣٦٤]، الدعوة إلى دار السلامة من كل مكروه والعمل بدون مخاطر .

النظافة والترتيب : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣٦٥]، فالنظافة سلوك حضاري والإسلام هو القدوة لكل المجتمعات الإنسانية في تعليم النظافة والمحافظة عليها فالبيئة المحيطة بنا خلقها الله نظيفة طاهرة ومن واجبنا أن نحافظ على نظافتها لنستمتع بها كما خلقها الله .

الوقاية من الضوضاء المميتة :﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ [٣٦٦]، وهو خطر الضوضاء العالية والتي قد تقود إلى الموت، وهم هنا استخدموا الأصابع سدادة للأذن للوقاية .

وقد حمي الله سبحانه وتعالى البيوت من التلوث الضوضائي والأصوات الخارجية العالية، وجعل المناداة على أهل البيت من الخارج بصوت مرتفع أو بآلات تنبيه السيارات وغير ذلك، عمل مزعج .

قال تعالى: ﴿ إنَّ الَذينَ يُنَادُونَكَ من وراء الحُجُرَات أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * ولَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣٦٧] .

استخدام مهمات الوقاية الشخصية ضد الحرارة : ﴿ وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾[٣٦٨]، تبين الآية أهمية ارتداء ملابس الوقاية، وتحث على حماية الجلد من تأثيرات الأشعة فوق البنفسجية الضارة . وتشير أيضاً إلى الالتزام بارتداء أية مهمات أو ملابس من شأنها الحماية من الإصابات الناجمة عن الحرارة الشديدة، وهناك أيضاً البدلات العاكسة والمخصصة لاقتحام الحرائق .

---

363 . البقرة (آية ١٩٥) .

364 . يونس آية ٢٥ .

365 . البقرة آية ٢٢٢ .

366 . البقرة آية ١٩.

367 . الحجرات آية ٤، ٥

368 . النحل آية ٨١ .

مهمات الوقاية الشخصية ضد الضوء الشديد : ﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [369]، تبين الآية خطر الضوء المبهر الصادر من البرق على العين، وكذا الضوء المبهر الصادر عن أعمال اللحام يمكن أن يضر بالعين في حالة عدم استخدام نظارات اللحام الواقية .

التخزين الآمن السليم : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [370]، سياسة التخزين الآمن وغير المتلف للمحصول .

مخاطر تغيرات الضغط الجوى : ﴿ ومَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [371]، فالارتفاع في الجو مسافات عالية يسبب ضيقاً في التنفس وشعوراً بالاختناق يزدادان كلما زاد الارتفاع .

السلامة فى السنة النبوية :

وردت في الأحاديث الشريفة العديد من الأحاديث الصحيحة التي تحض على السلامة من الأخطار المختلفة، السلامة من النار والنار من مستصغر الشرر : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون " . فإن ترك النار دون رقابة قد تتسبب فيما لا يحمد عقباه ومثل العمل باللحام والقطع دون تخصيص مراقب مستعداً بجهاز الإطفاء لأي طارئ . عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه " فيعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقول الله أكبر عند الحريق – لا قدر الله –. فلنتذكر عند إمساكنا بجهاز الإطفاء لمكافحة الحريق أن نذكر الله عز وجل ونقول الله أكبر .

إماطة الأذى عن الطريق لعدم إيذاء الآخرين وسلامة المكان : الحديث النبوي الشريف الذي رواه الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الإيمان بضع وسبعون :[372] أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان ".

إن مفهوم إماطة الأذى لا ينبغي حصره في ذلك المفهوم البسيط : إزاحة حجر، أو شوك يؤذي المارين من طريقهم . بل إن الأمر يشمل مجالات أوسع تهم الإنسان في حياته الدنيا والأخرى، إن إماطة الأذى معناه تنحية وإبعاد كل ما يضر بالمسلم من طريقه سواء كان ذلك حجرا أو

---

369 . البقرة آية ٢٠ .

370 . يوسف آية ٤٧ .

371 . الأنعام آية ١٢٥.

372 . عند البخاري بضع وستون– شعبة (زاد مسلم) .

شوكا أو مدرا أو غيره، ومن ثم فكل ما يتأذى منه الإنسان بصفة عامة والمسلم بصفة خاصة فهو أذى أي ضرر ينبغي إبعاده، بنية التقرب إلى الله عز وجل بالعمل الصالح .

العادات الصحية السيئة : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " [٣٧٣]، ومعروف أن البصق على الأرض قد ينقل الكثير من الأمراض وأخطرها وهو مرض السل وكذلك أنفلونزا الخنازير .

" لا تتناوبوا الشرب من إناء واحد " : ينهى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتناوب الجماعة الشرب من إناء واحد، أو أن يضعوا أفواههم في مكان بعض لأن ذلك ينتن الشراب، وينقل العدوى لكثير من الأمراض مثل التهاب الحلق والفم والأنفلونزا، ولذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب في السقاء لأن ذلك ينتنه) .

ينهى الإسلام عن العطس في وجوه الناس، إذ إن ذلك ينتشر بينهم كالأنفلونزا والتهاب الحلق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غطى وجهه بكفيه أو طرف ثوبه..

خطر تلوث الغذاء : يأمرنا صلى الله عليه وسلم بعدم ترك الطعام والشراب مكشوفا حتى لا يتعرض للغبار أو الذباب أو الحشرات، وهذه أمثلة من تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم في نظافة الآنية وتغطيتها فيقول صلى الله عليه وسلم " أوقوا قِربكم واذكروا اسم الله، وغطوا آنيتكم واذكروا اسم الله ".. ويقول صلى الله عليه وسلم " غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء "، والسقاء ينطبق على الصنابير ومحابس غلق المياه التي تترك مفتوحة أو تالفة فغرقت البيوت وأهلها نيام أو هم خارج البيت أو في سفر طويل .

السلامة الجسدية واجب وحق :

إذا كان الحق فى السلامة الجسدية محله الجسم، فإن ذلك ينصرف إلى جميع جزئيات وأجهزة وأعضاء الجسم، سواء تلك التي تؤدي إلى وظائف عضوية، كالجهاز الهضمي والتنفسي والقلب والأطراف، أو التي تؤدي

وظائف ذهنية كالمخ، وما يقوم به من وظائف خاصة بعملية التفكير والتي ترتبط بالجسم، ويعد

---

373 . رواه البخاري ومسلم .

القوة المحركة للفرد بما توحي هذه الوظائف الذهنية من مقدرات الحياة والعمل على تجنب كل ما يهدد بقاء الإنسان، أو الأعضاء والأجهزة التي تؤدي وظائف نفسية كمراكز الإحساس والشعور بالجسم .

لذلك فإن الإنسان مطالب بالمحافظة على سلامة جسده فلا يلقي بيديه إلى التهلكة، فالسلامة الجسدية حق لكل إنسان وهى أيضا واجب على كل إنسان ألا يتعرض لانتهاك هذه السلامة للآخرين، وهي أيضا واجب على كل إنسان بمراعاة سلامة أعضاؤه، فعلى سبيل المثال نجد من يضيع بصره هدرا فى السَهَر دون جدوى، فتجده سهران أمام التلفاز أو أمام النت والشات، ما جدوى ذلك سوى انه إهدار للصحة، وتجد آخر يدخن فما جدوى تدخينه ذلك سوى أنه إهدار وانتهاك لسلامة أجهزته التنفسية وسلامة الرئة .

والأمثلة على انتهاك الإنسان لسلامته الجسدية بنفسه كثيرة ولا تعد، لذلك فإن السلامة الجسدية حق وواجب .

لقد خلق الله عز وجل الإنسان، وخلقه على أحسن صورة، وفضله على جميع خلقه، وهذا الجسم الذي خلقه الله للإنسان وأمره بالمحافظة عليه وأعطى الله سبحانه وتعالى أسبابا عدة فى الكون لمساعدة الإنسان على بقاء جسمه طوال حياته، والى مماته، وحتى فى مماته هناك حرمة لهذا الجسم .

ألا كل ذلك يعطينا نظرة تأملية كي نحافظ به على جسمنا الذي خلقه المولى عز وجل لنا .

الفصل التاسع

الحق فى الحياة

لقد اعتبر الإسلام حياة الإنسان شيء مقدس، لا يجوز لأحد أن يعتدي عليه، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [٣٧٤]

لقد أولى الإسلام الإنسان باعتباره من أجّل مخلوقات الله أهمية، فرفع هذا الحق إلى مرتبة عُليا، فحرّم قتل الإنسان بغير حق، بل إن الإنسان لا يملك شرعا أن ينهى حياته بإرادته هو، وإلا كان آثما، ومن هنا حرم الإسلام الانتحار، يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾[٣٧٥] فالنفس ملك لله وليس لأحد أن يقتل نفسه .

ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه يخرج منه . ونقول له أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه، فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر : وهل أنا فى الكون وحدي ؟ لا، إن لي رباً . ومادام لي رب فأنا لا أقدر وهو سبحانه يقدر، وهنا يطرد فكرة الانتحار، لان المنتحر هو إنسان يضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه .

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ وبالله، ساعة ينهانا الحق عن قتل أنفسنا أو أن نقتل غيرنا، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعته ؟ إنها منتهى الرحمة .

وأهم ما يلحظ في الأساس الديني لحق الإنسان في الحياة هو أن حياة الإنسان هبة مقدسة من الله سبحانه وتعالى وأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، وامتاز بتكريم الهي لم ينله أي مخلوق آخر على الأرض . لقد شاءت قدرة الله سبحانه وتعالى أن يخلق الإنسان من تراب وينفخ فيه من روحه وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تؤكد خلق الله تعالى للإنسان ومنها قوله

---

374 . (المائدة ٣٢) .

375 . (النساء ٢٩) .

تعالى :﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَة إِنِّي خَالقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُون ﴾[٣٧٦] وقال جلت قدرته ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وبَدَأَ خَلْقَ الإنسان من طِينٍ ﴾[٣٧٧] . وإلى غير ذلك من الآيات الكريمة وكلها تدل على خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان من تراب وصوره بشرا ونفخ فيه من روحه وأنعم عليه ووهبه الحياة لذا تعتبر حياة الإنسان في الشريعة الإسلامية مقدسة لأنها من روح الله التي نفخها في آدم عليه السلام وذريته من بعده وأن لحياة الإنسان حرمة كحرمة خالقها وكل فرد من بني آدم بناء بناه الله وسواه فليس من حق أحد سواه أن يهدم ما بناه وتعد حياة الإنسان والحفاظ عليها وصيانتها في طليعة الأهداف التي ينشدها الدين الإسلامي .

إن الله جلت قدرته خلق الإنسان واستخلفه على الأرض نيابة عنه ﴿ ويَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[٣٧٨] وقوله تعالى ﴿ وهُوَ الَذِي جَعَلَكُمْ خَلائفَ الأَرْضِ ورَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾[٣٧٩]، وأمده بجميع مستلزمات نجاحه في مهمة الخلافة التي في المقدمة منها الحياة لأنها روح الإنسان ومحركه الأساسي بأمر الله سبحانه وتعالى، فالإنسان عندما يفقد الحياة يتحول إلى جماد لا حركة فيه ولاشعور ثم يتحلل بعد فترة ويتحول إلى تراب، لذا يعتبر حق الحياة في الشريعة الإسلامية حقا مقدسا لا يحق لأي شخص سلبه منه لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان إلى أجل معين حدده هو جلت قدرته فلا يعلم الإنسان متى تنتهي حياته أو حياة غيره فلا يحق لأي إنسان مهما كان مركزه وقدرته أن يسلبه هذه المنحة الإلهية دون حق مشروع ﴿ وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ونُمِيتُ ونَحْنُ الوَارِثُونَ ﴾ [٣٨٠]، ومنحه حق الحياة لحكمة أرادها وهي جعله خليفة في الأرض لاعمارها ولم تزل تلك الخلافة قائمة إلى قيام الساعة، فالحق في الحياة هنا مستمد من أصل إيماني راسخ فالإنسان ليس مجرد كائن عابر بل هو ممثل عظيم لقيم عظيمة خلقها الله سبحانه وتعالى، كرمها الله بخلقها بيديه وصورها بأحسن الصور﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ

---

376 . (سورة الحجر آية ٢٨) .

377 . (سورة السجدة آية ٧) .

378 . (سورة الأعراف أية ١٢٩) .

379 . (سورة الأنعام آية ١٦٥) .

380 . (سورة الحجر الآية ٢٣) .

﴾[381]، لأنه روح عاقلة خصها الله بنعمة الإدراك والعقل دون غيره من المخلوقات، وكرم الله جلت قدرته الإنسان وفضله على كثير من مخلوقاته فقد خلقه بيده وأمر الملائكة بالسجود له وميزه بالعلم والمعرفة فهو يمتلك عقلا وعلما وإدراكا ومعرفة لذلك لعمله قيمة ومعنى دون غيره من المخلوقات وأنه مسئول عن نتائج أعماله ، وسخر القادر كل ما في الكون بسمائه وأرضه ومياهه ، وجميع المخلوقات لخدمة الإنسان ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ﴾[382] لينتفع ويستعمله حسبما تقتضيه مصلحته، وهذه ميزة أخرى لتكريم الإنسان في الشريعة الإسلامية .

وهذا يعني أن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت إيجاد مخلوق عاقل يعبد الله ويسبح بحمده بعد أن يلمس آثار قدرته وعظيم صنع الله وقد بلغ الإسلام في تكريم الإنسان حداً لم تصله أي من الشرائع السماوية من قبله فجعل نظرة التقدير للإنسان من حيث هو إنسان مطلقا فقرر المساواة في القيمة الإنسانية ولم يكن تكريمه على أساس الدين أو اللون أو الجنس أو العرق أو الجاه أو الثروة ﴿ ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والْبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[383] وهذه الآية تدل على تكريم جنس الإنسان عامة ولم تخص جماعة بعينها واعتبار الناس سواسية بحسب خلقهم الأول ولا يوجد في نظر الإسلام تفاضل في إنسانيتهم لأن الكرامة الإنسانية حق لكل بني آدم والتفاضل بينهم خارج عن نطاق الإنسانية ومتعلقة بتقوى الفرد لله، وتجنب نواهيه ومقدار ما يقدمه من عمل صالح متفق مع أوامر الله سبحانه ونواهيه .

ويمتد تكريم الإسلام للإنسان إلى ما بعد انتهاء حياة الإنسان بموته حيث أمر بتغسيله وتكفينه وتشييعه بما يناسب كرامته الإنسانية والصلاة عليه إن كان مسلما ودفنه، والإسلام اعتبر جسد الإنسان مكرم بعد موته كتكريمه في حياته فأي تشويه أو تمثيل بجسد ميت هو إهانة لإنسانية هذا الجسد .كما رأينا حق الإنسان في الحياة، حقا مقدسا في الشريعة الإسلامية، ومستندا على أساس ديني متين وأصيل مرتبط بلب العقيدة الإسلامية، لأن الإنسان في نظر الشريعة عماد العالم وروحه ومتى انعدم النوع الإنساني من خلال انعدام مجموعة من أفراده فإن العالم يعد ميتا لا محالة .

---

381 . (سورة التغابن الآية ٣) .

382 . (سورة لقمان الآية ٢٠) .

383 . (سورة الإسراء الآية ٧٠) .

القصاص فى الإسلام

ونجد أيضاً أن الحق تبارك وتعالى يقول "ولَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [384].

وهو الحق ولقد وضع للإنسان منهج الحق الذي يسير به فمن قتل نفساً عمداً، يُقتل كما قتل هذه النفس، ولا يمكن أن نعتبر دعاة إسقاط عقوبة الإعدام، دعوة عدل، بل العدل هو أن من يَقتل يُقتل، وذاك هو العدل، أولا : لان ذلك سوف يترتب عليه الردع العام فالشخص القاتل سوف يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على مثل هذا الفعل الشنيع، إذا أقدم عليه فسوف يكون مصيره، المصير الذي سمح لنفسه وحدده لغيره .

لقد فرض الإسلام القصاص حتى لا تنتشر الفوضى والاضطرابات فى المجتمع .

---

384 . (البقرة ١٧٩) .

الفصل العاشر

الحق فى بيئة نظيفة

إن الإسلام دينا شاملاً متكاملاً، فلقد اهتم بتهيئة البيئة ونقائها وتنقيتها، واهتم القرآن الكريم، كما اهتمت السنة النبوية، بكافة الموضوعات والمحاور البيئية، تأدياً لحق البشر فى بيئة نظيفة خالية من التلوث، ومنها خلافة الإنسان فى الأرض وتسخير الأرض وتمهيدها وتسخير البحار والأنهار وتسخير الأنعام وغيرها من المخلوقات والعلاقة الخاصة بين الإنسان والأنعام وتسخير الرياح والحفاظ على الماء كعصب للحياة وحفظ النوع والسلالة وصحة البيئة وغيرها من الموضوعات التى حثنا الإسلام من خلالها على الحفاظ على البيئة خالية من أى تلوث، والحق سبحانه يلفت النظر إلى الأخطاء الناتجة من هذا العمل الضار الملوث للبيئة، فيقول سبحانه : ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[385]، فأي إخلال من الإنسان بالبيئة مدعاة لظهور الأمراض ويتسبب عن ظهور الفساد، الضعف والهزل وعدم القدرة على الإنتاج... والحفاظ على البيئة نظيفة خالية من التلوث من مراتب الإيمان فى المنظور الإسلامى ؛ لأن البيئة النظيفة المتوازنة من خلق الله عز وجل وسخر الإنسان للاستفادة بها دون تلويث أو تدمير .

وتظهر الحقوق الإنسانية فى بيئة نظيفة خالية من التلوث فى المنهاج الإسلامى من خلال ما يلى:

– المفهوم الإسلامى للبيئة النظيفة الخالية من التلوث، من أجل أن يستمتع بها جميع البشر ؛ لأن حقوق الإنسان البيئية تتمثل فى بيئة نظيفة خالية من أى تلوث ؛ لكى يحيا الإنسان حياة سعيدة مستقرة هانئة، فلقد طالب الإسلام الإنسان بأى يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود .

قال تعالى : ﴿ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[386] والله يخبرنا بأنه هو وحده خالق البيئة فى توازن دقيق وهو الذى يضع التى تكفل حفظ التوازن البيئى الطبيعى، قال تعالى : ﴿ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

---

385 . الروم ٤١ .

386 . الأعراف ٨٥ .

رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[387]، وقال عز وجل : ﴿ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[388]، فالبيئة خلقها الله بوفرة، ولكن استخدام الإنسان السئ يضر بها أبلغ ضرر بسبب الإفساد بكل مكوناته وصوره وأشكاله مما يجعلها نادرة ويظهر ذلك فى قوله جل جلاله: ﴿ واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ولاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[389]، وقول الحق : ﴿ وإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾[390]، والآيات القرآنية كثيرة فى هذا المقام .

لقد دعانا الإسلام إلى الاستفادة الكاملة بالنعم البيئية التى رزقنا الله بها، وأن ننتفع بها وبخدماتها، كجزء من حقوق الإنسان فى العالم كله، فلقد جاءت أسماء مكونات عديدة للبيئة كأسماء للسور القرآنية المباركة، مثل البقرة والرعد النحل والنور والنمل والعنكبوت والطور والنجم والقمر والبروج والطارق والفجر والشمس والليل والضحى والتين والفيل وغيرها من مكونات البيئة فى ثنايا الآيات القرآنية الشريفة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[391]، وقوله عز وجل : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[392] وغيرها من الآيات .

وقد جعل الله عاقبة الفساد فى الأرض – مثل تخريب البيئة الطبيعية – عقاباً أليما فى الدنيا والآخرة، فتـــعامل الإنسان مع البيئة يجب أن يكون من خلال الاستثمار الأمثل دون إضرار بالآخرين حتى لا يقع علينا حكم الفساد فى الأرض وتخريبها والإضرار بها، لهذا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَذينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا

---

387 . الحجر ١٩ .

388 . الفرقان ٢ .

389 . الأعراف ٧٤ .

390 . البقرة ٢٠٥ .

391 . النحل ٥ .

392 . الجاثية ١٣ .

ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[393]، وهذا الحكم عام، ويسمى حكم المحاربة، او الحرابة، ولقد اتخذته كثير من الدول الإسلامية لمحاربة الفساد البيئى، مثل : المخدرات والسرقة وترويع الآمنين، وغير ذلك كما أجمع على ذلك الأئمة مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ...

إن الدعوة الإلهية للبشر جميعاً لتقدير البيئة المتوازنة والحفاظ عليها جميلة نظيفة خالية من أى تلوث ؛ لأن الله خلق كل شئ بقدر ودقة شديدة لا يعلمها إلا هو سبحانه وجعل استخدامها حق من حقوق كل البشر، لأن مكونات البيئة مخلوقة بتوازن عجيب لخدمة المخلوقات جميعاً، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[394]، وقوله عز وجل :﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا واشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ ولا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[395] ..

كما أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا مسئولون عن تدمير البيئة بأى شكل ومسئولون عن الإسراف فعن أبي عسيب قال : خرج رسول صلى الله عليه وسلم ليلا فمر بـــي فدعاني إليه فخرجت، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط : " أطعمنا بسراً " فجاء بعذق فوضعه فأكل .. فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم دعا بماء بارد، فشرب، فقال : لتسألن عن هذا يوم القيامة، قال : فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا رسول الله أئنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟، قال صلى الله عليه وسلم : " نعم إلا من ثلاث : خرقة كف بها الرجل عورته أو كسرة سد بها جوعته أو حجر يتدخل فيه من الحر والقر "[396]، وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة"[397] .

ودعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدم تدمير الطير لأنهما من سنن الحفاظ على البيئة الطبيعية، فعن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت

---

393 . سورة المائدة آية ٣٣ .

394 . سورة القمر آية ٤٩ .

395 . سورة البقرة آية ٦٠ .

396 . رواه أحمد فى مسنده ١٩٨٤٠، ورواه مسلم ٣٧٩٩ .

397 . رواه مسلم فى صحيحه حديث رقم ٢٩٠٠ .

الحمرة فجعلت تفرش فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها "، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال : " من حرق هذه ؟ " . قلنا : نحن . قال : " إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار "[٣٩٨] .

وفي حديث آخر نهانا رسول الله على أن نمس الطبيعة الجميلة بالتخريب، فلا نقطع شجرة أو فرعاً منها يستـــظل بها ابن السبيل والبهائم، ونهانا عن قطع كل ما نبت في البر عبثاً وظلماً، فعن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن حبشي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار "، وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : " هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار "[٣٩٩] .

---

398 . رواه أبو داود حديث رقم ٢٣٠٠ .

399 . رواه أبو داود حديث رقم ٤٥٦١ .

الفصل الحادي عشر

الضمانات الإسلامية للحقوق والواجبات الاجتماعية

حماية الإسلام للأعراض :

شمل الإسلام الأعراض بأقوى حماية يمكن أن يختص بها حق من حقوق الإنسان وتبدو حمايته هذه أوضح ما يكون فى العقوبات التى يوقعها فى حالات الزنا وهتك العرض والقذف والشذوذ الجنسي، كما تبدو فى تحريمه الغيبة والنميمة والتجسس والهمز واللمز والتنابز بالألقاب يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [400]، وما إلى ذلك من كل ما يمس عرض الإنسان وكرامته وبجانب العقوبات التى يوقعها الإسلام على مرتكبي الأفعال السابقة، نجده وضع أسس للوقاية من الوقوع في إحدى هذه الأفعال، فالإسلام هذب النفس البشرية تهذيباً سامياً فيضع لها أحكاماً تصون بها النفس كرامتها وعرضها، ومن هذه الأحكام:

١. **غض البصر** : إن النظرة هى بداية الزوع بالنسبة للرجل والمرأة، وما دامت النظرة قد بدأت فلا يستطيع الإنسان التحكم فى نفسه بالنسبة لما يمكن أن يحدث بعد ذلك، فالنظرة سهم من سهام إبليس، وغض البصر للرجل وللمرأة معاً، فهو حماية لكليهما، قالت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة فأقبل ابن مكتوم رضي الله عنه وكان أعمى وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احتجبنا منه " فقلنا : يارسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : " أفعمياوان أنتما، ألستما تبصرانه ؟ [401].

---

400 . الحجرات ، ١١، ١٢

401 . رواه الحاكم فى المستدرك (٧١١٤/١٢٩)

٢. **الزواج** : إن الزواج هو الرباط المقدس الذى شرعه الله عز وجل لينظم العلاقة بين الرجل والمرأة فى هذا الكون، ولذلك حرم سبحانه وتعالى جميع العلاقات التي تنشأ بين الرجل والمرأة، خارج نطاق الزواج، ولذلك حرم الزنا، وكل ما يؤدي إليه أو يمهد له أو يسهل طريقه، فالزواج أغض للبصر وأحصن للفرج، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء "[٤٠٢]، وبناء عليه فإن عدم مقدرة الفرد على الزواج ليس معناه مبرراً للوقوع فى خطيئة من الخطايا الكبرى التى نهانا عنها الله عزوجل ورسوله وهى الزنا، أو ما يمهد الطريق إليه .

ويوضح لنا الإسلام أن من لم يستطع الزواج فعليه بالصيام، والصيام للرجل وللمرأة، والمرأة عليها أن تتعفف وتحصن لفرجها حتى يأتى لها أمر الله يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[٤٠٣] .

٣. **الصيام**:[٤٠٤] والصيام لا يكون فقط بالامتناع عن الطعام فى الفم بل هو امتناع قول الفحشاء من الفم، الصيام عن النظر بالعين إلى كل ما يغضب الله عز وجل، الصيام عن السمع بالأذن من أقوال ومجالس غيبة ونميمة، الصيام بالقلب عما يشغل قلبك عن ذكر الله، وبذلك يصبح الصيام بكل جوارح الإنسان، وقلبه عامر بذكر الله فهل من المتصور أن من يصوم هذا الصيام مع صلاته، من الممكن أن يقع فى فاحشة ؟! .

واكتمالاً لحماية الإسلام للأعراض فإنه له رؤية لشهوة الإنسان ونوضحها فيما يلي :

تهذيب شهوة الإنسان :

يتوهم معظم الناس أن لولا الشهوات لما هلك الإنسان، والحقيقة عكس ذلك، لولا أن الله أودع في الإنسان هذه الشهوات لما ارتقى بها إلى الله عز وجل، قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[٤٠٥]، هذه الشهوات ركزت في أصل فطرتنا، ولكن لأن الإنسان مخير، الشهوات

---

402 . رواه الجماعة بسندهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

403 . سورة النور آية رقم ٣٣ .

404 . وأوضحنا ذلك سابقا فى الباب الرابع شرحا وافيا بينا فيه الحصانة الإسلامية للمجتمع .

405 . سورة آل عمران أية رقم ١٤ .

كلها حيادية، بمعنى أنها يمكن أن تكون سلماً نرقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن تكون دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين .

فتصور إنسانا لا يشتهي شيئاً، لا تجد على سطح الأرض شيئاً إطلاقاً، لا مدارس، ولا جامعات، ولا معامل، ولا جسوراً، ولأنه يشتهي أن يأكل فلابد من أن يتحرك، لأنه يشتهي المرأة فلا بد من أن يتزوج، لأنه يشتهي التفوق فلابد من إنجاز كبير، تصور حياة بلا شهوات، ليس هناك شيء إطلاقاً، فلولا الشهوات التي أودعها الله في الإنسان لما ارتقى الإنسان بها إلى الله عز وجل.

لكن النقطة الدقيقة جداً : أن هذه الشهوات لها معانٍ متناقضة، فبينما تكون الشهوة قوة دافعة، إذا بها قوة مدمرة، في الوقت نفسه .

فمثلاً – ولله المثل الأعلى – البترين الذي يوضع في السيارة، إذا وضع في المستودعات المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ولَّد حركة نافعة، ونقلتك هذه السيارة إلى مكان ما، ما الذي يحصل في المركبة ؟ انفجارات، لكنها مبرمجة ومنظمة، والبترين في مكان محكم، والأنابيب محكمة، والانفجار في الوقت المناسب، والمكان المناسب .

صفيحة البترين لو ألقيت على المركبة، وأصاب المركبةَ شرارةٌ لأحرقت المركبة ومَن فيها، فبينما هذا الوقود السائل قوة محركة ثمين جداً، هو في الوقت نفسه قوة مدمرة ماحقة .

هكذا الشهوات، إما أنها قوى تدفعنا إلى الله أو قوة تبعدنا عنه .

ما الذي يدفعك إلى الله ؟ أن تحب المال، ثم تنفقه في سبيل الله، أن تحب المرأة، ثم تتعفف عن امرأة لا تحل لك، أن تحب العمل المشروع، ثم تركل بقدمك كل عمل غير مشروع .

الحقيقة أن الشهوة نرقى بها مرتين، مرة شاكرين، ومرة صابرين، نرقى بها مرتين ببعدنا عن شهوة لا تحل لنا، ومرة لأخذنا شهوة تحل لنا .

مرة ثانية ليس في الإسلام حرمان، لأن الحقيقة الدقيقة جداً : أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

هناك من يتوهم أن كل شيء في الإسلام حرام، وهذا غير صحيح، فحينما تمشي بأرض فلاة، ثم رأيت لوحة مكتوب عليها : حقل ألغام، ممنوع التجاوز، هل تشعر بحقد على مَن وضع هذه اللوحة ؟ أبداً، تشعر بامتنان، هل ترى هذه اللوحة قيداً لحريتك ؟ أم ضماناً لسلامتك ؟

لذلك الشهوات أودعها الله في الإنسان، ولكن لحكمة بالغة بالغة، ولأن الإنسان كلف حمل الأمانة، ولأن الإنسان كلفه ربه أن يعبده، سمح له أن يتحرك بكل شهوة أودعها فيه ١٨٠

درجة، وأعطاه حيزاً مقبولاً عنده، ومشروعاً له، فرضاً ١٠٠ درجة، فما دامت حركة الإنسان من خلال هذه الشهوة ضمن المساحة المسموح بها فهو في مأمن، وهو في رضوان الله، بل لا يشعر أنه فعل شيئاً محرّما، بالعكس يتقرب إلى الله إذا مارس شهوة سمح الله له بها .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وفي بُضْعِ أحدِكم صدقة " [٤٠٦] .

لأن الإنسان حينما يفعل هذا يكون قد نفذ منهج الله، أما حينما يتحرك بدافع من شهواته بعيداً عن الحيز الذي سمح الله به تكون المعصية .

بل إن أية حركة بدافع شهوة خارج النطاق المسموح به هو في الحقيقة عدوان .

حينما تكسب المال الحلال وفق منهج الله، وفق بيع وشراء صحيحين، وفق سعر معتدل، وفق بضاعة جيدة، لا فيها كذب، ولا غش، ولا احتكار، ولا تدليس، ولا أي معصية من معاصي البيع والشراء، وتكسب المال الحلال، فأنت في بحبوحة، وأنت في رضا الله عز وجل، أما إذا اعتمدت على الغش، غششت المسلمين، أو غششت الناس جميعاً لقول النبي الكريم: " ليس منا من غَشَّ" [٤٠٧] .

فإذا غششت الإنسان كائناً من كان، أو وهمته بشيء عن البضاعة ليس فيها، فقد غششته .

لذلك الغش عدوان، لذلك التطلع إلى امرأة لا تحل لك عدوان، لذلك أن تقول كلام غير صحيح توهم الناس بشيء عدوان، فيجب أن نعلم علم اليقين أننا إذا تحركنا بدافع من شهواتنا وفق منهج الله لا عدوان إطلاقاً .

لو أن إنسانا خطب فتاة، وجعلها زوجة له وأنشأ أسرة، وأنجب أولاداً صالحين، الأسرة كلها مباركة، ولو أنه أفسد فتاةً، ونقلها من فتاة شريفة إلى فتاة بغي، فكل ما سيأتي بعد هذا الإفساد في صحيفة هذا المفسد .

فمن المستحيل أن يتحرك الإنسان بدافع من شهواته خارج منهج الله ولا يكون معتدياً، والعدوان يعقبه العقاب من الله عز وجل، فإذا أراد الإنسان أن يكون في مأمن، في بحبوحة، في أمن، في طمأنينة، في راحة، في سعادة فليكن وفق منهج الله . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [٤٠٨] . فإتباع الهوى وفق هدى الله لا شيء عليه .

---

406 . أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري .

407 . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

408 . سورة القصص آية رقم ٥٠ .

أخلاق المسلم

إن أخلاق المسلم هي القلعة الحصينة الكبرى لحماية حقوق الإنسان والتزامه بواجباته، فإذا صلحت أخلاق المسلم، صلح معه باقي أعماله، كمراعاة حقوق الآخرين والتزامه بواجباته، عن عبد الله بن عمرو قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا، وكان يقول : " خياركم أحاسنكم أخلاقا".

إن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحة إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، ولقد اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعاداً عنه .

فليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين، ويحترم ذويها، كما أن الحديث عن الأخلاق ليس مجرد حديثا مرسلا، بل أن الأخلاق فى الإسلام هي إحدى مبانيه الأساسية .

وقد أحصى الإسلام بعدئذ الفضائل كلها، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة، فعن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : ((أحسنهم خُلقاً)) . وفى رواية ((ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : خلق حسن))، وقال صلى الله عليه وسلم : ((إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شيء، وان أحسن الناس إسلاما، أحسنهم خلقا)) .

عن أنس قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل، وأنه ضعيف العبادة، وأنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم)) .

إن الأخلاق التي أمر بها الإسلام، أمر أن يتعامل بها المسلم مع الجميع، فليس فقط مع المسلمين وبعضهم وإنما أمر المسلم بأن يتعامل مع غير المسلمين بالأخلاق التي أمره الإسلام بها، فقد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له، ولا شك أن فى الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة، لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل، فالمسلم مكلف أن يلقي أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم . الخ .

وذلك على مستوى الأشخاص وبعضهم، أما من الناحية العامة، فقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم

وازدهار حضارتها، واستدامة منعتها، إنما يكفل لها، إذا ضمنت حياة الأخلاق فيها، فإذا سقط الخلق سقطت الدولة معه .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم فى جزيرة العرب لسيادتهم، وتولى مقاليد الحكم بها، ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم الا بالخلق وحده .

فعن أنس بن مالك قال : كنا فى بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه .. ثم قام إلى الباب فأخذ بعضاديته (أي مصراعيه)،

فقال : ((الأئمة من قريش ولي عليكم حق عظيم، ولهم ذلك ما فعلوا ثلاثاً : إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) [٤٠٩] .

هذا الحديث حاسم فى أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل فى العالم من صفات عالية، وما تحقق من أهداف كريمة .

فلو أن حاكما حمل طابع الإسلام والقرآن معاً، ثم نظر الناس فوجدوه لا يعدل فى قضية، ولا يرحم فى حاجة، ولا يوفي فى معاهدة، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوماته الفاضلة، وأصبح أهلا لأن يلعن فى فجاج الأرض وآفاق السماء .

وروي الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم الحكماء، وجعل المال عند السمحاء، وإذا أراد الله بقوم شراً ولى أمرهم السفهاء، وجعل المال عن البخلاء)) [٤١٠] .

إن الخلق فى منابع الإسلام الأولى – من كتاب وسنة – هو الدين كله، وهو الدنيا كلها . فان نقصت أمة خطأ من رفعة فى صلتها بالله، أو فى مكانتها بين الناس، فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خلقها .

---

409 . رواه الطبراني .

410 . أبو داوود .